

فصل من كتاب: التاريخ لا يفيد

# سيدي المتولي

طومان باي

سلطان المقاومة الشعبية في مصر

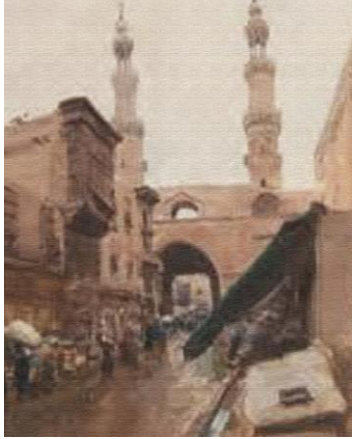
بقلم:  
مصطفى حامد

نشر علي موقع مافا السياسي 2024



## مقدمة كتاب

### (سيدي المتولي) طومان باي: سلطان المقاومة الشعبية في مصر



## مصر أسطورة لا نهاية لها

## بعد النهاية.. بداية أخرى

أين هو بين هؤلاء؟؟؟

اسمه الرسمي: السلطان طومان باي.

ووظيفته وقَدَرُهُ : السلطنة على عرش مصر كآخر سلاطين المماليك.

محل الإقامة الرسمي: دفنه العثمانيون في فسقية الغوري بالقاهرة.

محل الإقامة السري: قلوب الفقراء " والعبيد الفلاحين " وعرب صحارى مصر المشردون والمطاردون من حكام مصر . والأقباط الذين جمعهم مع مسلمي مصر حب الرسول لمصر وأهلها وتوصيته بهم خبرا. فعمل الحكام بعكس ما أوصاهم به، كما خالفوا جميع سننه ولم يخجلوا من تسمية أنفسهم بالخلفاء.

خبأ المصريون سيدهم "المتولي طومان باي" في باطن دعوات الصوفية وأحلام حرافيش الحوارى والأرازل الذين مازالوا يحتفظون بمقاليع وأحجار أجدادهم البؤساء زملاء الحرب مع السلطان سيدي المتولي (طومان باي).

أسماء الشعب المصري (سيدي المتولي) ودفنه المصريون في أعماق القلوب والضمائر حتى لا يختطفه أعداء الإنسانية. وخبأوا اسمه مشفراً في مغارات القصص الشعبية مثل أدهم الشرقاوي والظاهر بيبرس.

أما باب زويلة الرهيب رمز طغيان عهود طويلة من الظلم باسم الدين، أسماء المصريون باب المتولي . ليكون ملاذا لأصحاب الإيمان الغامض بظهور بطل قاهر يفرض العدل بسيفه على رقاب كل الظالمين، ومعه يرجع فقراء المحروسة والصوفية إلى نبابيت ومقاليع الثورة وأحجارها، ليموتوا موتا له معنى وعليه أجر عند الله. بعد حياة لامعنى لها ولا أجر عليها.

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ - 5 سورة القصص) صدق الله العظيم

## صورة الغلاف

يظهر في الغلاف صورة لباب زويلة سابقا والذي أصبح اسمه لدي الشعب المصري بوابة المتولي بعد أن أقدم السفاح التركي سليم الأول على شنق سلطان المقاومة المصرية طومان باي. الذي أصبح اسمه عند شعب مصر (سيدي المتولي) الذي عاملوه كأحد أولياء الله الصالحين أصحاب الكرامات وأقاموا تحت تلك البوابة فُرُشا وحُصُرا واتخذوها بيتا، يتبركون به.

وقد أرادها سليم رادعاً للمصريين وإخافتهم من بطش الأتراك. ولكن المصريين أخذوا من بوابة المتولي رمزا للصمود والعزة وتحدي الظالمين والمحتلين من أترك ثم فرنسيين ثم إنجليز.. إلخ .

وكما أراد يزيد بن معاوية أن تكون أرض كربلاء كابوساً مرعباً علي صدور المسلمين وانتقاماً وتشفيا من الحسين سبط الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولكن كربلاء أصبحت من يومها وحتى اليوم أكبر مزار يتوافد عليه المسلمون بعد الكعبة المشرفة . يستلهمون نفس المعاني التي قام لأجلها الحسين لأجل العدالة وإقامة القرآن والسنة في واقع الأمة . فليس الدين مجرد طقوس شكلية بلا روح. فأصبحت كربلاء مدرسة ، كما أصبح باب المتولي مدرسة. وظل الحسين قدوة منذ منازلته الهرقلية الأموية وحتى الآن.

كما ظل سيدي المتولي رمزاً للفداء والروحانية الشفافة. فكان قدوة للمصريين من يوم أن استشهد في جهاده ضد البيزنطية العثمانية وحتى اليوم.

وحيث أن مصر وباقي الأمة العربية تتجهز لتغيير واقعها المظلم ورفض أي فاشية عسكرية، أو هرقلية أو بيزنطية تحكم باسم الإسلام.

رحم الله سيدنا ومولانا الحسين حفيد الرسول (صلي الله عليه وسلم).

ورحم الله سيدنا المتولي ابن شعب مصر.

دامت كربلاء للمسلمين. ودامت بوابة المتولي للمصريين.

\*\*\*\*

## حديث شريف

عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما، قال رسول الله (إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودّع منهم) رواه الحاكم في المستدرک.

\*\*\*\*

## ملاحظة عن هذا الكتاب:

كتيب سيدي المتولي هو جزء من كتاب أكبر مازال تحت الإعداد واسمه "التاريخ لا يفيد" وربما يصدر كجزء واحد. أو على أجزاء أو كتيبات... بإذن الله

## الفصل الأول:

### (سيدي المتولي) طومان باي سلطان المقاومة الشعبية في مصر "سابلة" العاصمة مسحوا أوساخ حواري المحروسة بكرامة الانكشارية.

#### مصر وحكامها

المصريون: البحث عن العدالة في الأرض والسماء

الشعب المصري مثل كل شعوب الأرض يطمع في نظام سياسي يوفر له العدل والإحسان: (الحرية والمساواة . والكرامة والتراحم الاجتماعي).

خصوصية مصر وشعبها أن طبيعتها الجغرافية في أغلبها سهلة وغنية ولا توحى لأهلها باحتراف القتال بقدر احترافهم زراعة أراضيهم الخصبة بمياه النيل الغزيرة. وموقعهم الجغرافي المتوسط يؤهلهم ليكونوا مركزا تجاريا إلى جانب قدرتهم على إنتاج الغذاء والطعام في منطقة محيطة تتميز بالجفاف والصحاري لهذا كانت مصر هدفاً لغزوات لدول الطامعة في التوسع وذات طبيعة القتالية وكان شعب مصر المنشغل بالزراعة وإنتاج الغذاء والتبادل التجاري مع من حوله كان مستعداً لتقبل المثل الدينية والإيمانية فكان ذلك ميله علي مر التاريخ أكثر من ميله إلى القتال الذي أضطر اليه كنوع من الدفاع عن النفس غالبا لصد الغزوات القادمة ومعظمها جاء من الشرق فكان يقابلها على حافة مصر الشرفية عند بداية الصحراء التي تربطها مع الشام ، وفي أوقات الثراء التي يتوفر فيها نظام قوي وطموح في مصر كان يمد خطوط دفاعاته عميقاً في اتجاه أقصى شمال الشام.

كما كان الحال عند بداية قصتنا هذه مع السلطان طومان باي.

من الطبيعي أن يدافع النظام الحاكم عن ذلك البلد الغني ويني الاستحکامات والدفاعات على الثغور والشواطئ وأن يبذل جزء كبير من موارد الدولة لأجل ذلك حيث أن الطبيعة السهلة لا توفر إمكانيات دفاع طبيعية فكان لابد من بناء استحکامات دفاعية من صنع الإنسان مثل القلاع والأسوار والخنادق.

وطبيعة الشعب غير القتالية كانت تستدعي تدريباً طويلاً للأفراد لأجل بناء جيش من أهل البلد وهذا ما تجنبة الغزاة علي الدوام.

فكانوا يبقون المصري خلف المحراث للزراعة بينما تبقي جيوشهم خلف السلاح لقمع ذلك المصري حتي لا يطالب بأي حقوق وأيضا لحراسة مصر بوصفها الكنز الذي استحوذوا عليه.

## المصريون افتقدوا العدالة في الأرض

### فبحثوا عنها في ديانات السماء.

### فقتلهم نصاري بيزنطة و العرب منعوا العدل من دخول مصر.

انتجت مصر علي مر التاريخ ديانات خاصة بها تتناسب مع أحلام الشعب المصري وطبيعته المسالمة إلي أن وصلتهم رسالات السماء إما من داخل مصر أو أتباع الرسالات والرسل الذين جاءوا من الخارج.

تعلق المصريون بتلك الديانات وانضموا إليها بسهولة نسبية بعد أن قاومتها الأنظمة الحاكمة خوفاً علي ثروتها وسيادتها فالعدالة والمساواة التي ينادي بها الدين لا تتوافق مع البطش والإرهاب والسرقات التي يقوم بها المحتل الأجنبي لمصر أو الطاغية المحلي.

رحب أقباط مصر بدخول الإسلام بل أنهم هم الذين وجهوا الدعوة إلي المسلمين للقدوم عندما علموا أن شعارهم هو العدل والمساواة التي هي أحلام الشعب المصري علي مر التاريخ.

في بداية الأمر سارت الأمور علي ما يرام إلي أن تم الانقلاب علي الحكم الإسلامي بعد نظام الخلافة الراشدة وتولي الحكم أنصار النظام الوراثي المستبد من الأمويين ثم العباسيين والأيوبيين ثم من تلاهم من مماليك ثم عثمانيين.

فكان الحكم الإسلامي أقرب للنظم الفرعونية ... فالإسلام اقتصر علي الشكليات بينما جوهر الحكم ظل فرعونياً مستبداً يترأسه طاغية مثل الذي كان في مصر منذ آلاف السنين. ولكن أصبح اسمه سلطان.

وعاد الاستبداد إلي مصر واستخدم الحكام شعبها كعبيد لزراعة الأرض حتي جاءهم الإسلام مرة أخرى من جهة الغرب علي أيدي الدولة الفاطمية التي حاولت أن تعيد قواعد الحكم الإسلامي إلي ما كانت عليه من عدل وإحسان ومساواة واستمرت في الحكم حوالي قرنين من الزمان، إلي أن أصابها الضعف والتفكك الداخلي والانحرافات مثل باقي الإمبراطوريات علي مر التاريخ حتي انهارت بفعل الضربة القاضية التي تلقته من صلاح الدين الأيوبي.

الذي أقام سلطنته في مصر علي أساس (الهرقلية الإسلامية) الحكم الوراثي المتعسف، ونهب الثروة العامة في مصر بشكل بشع والاستحواذ علي الحكم بشكل كامل له ولعائلته وللأيوبيين وقوة المماليك التي أنشأوها والتي نمت في عهدهم حتي استولوا علي الدولة وطرّدوا الأيوبيين من الحكم في مصر والشام وجزيرة العرب واليمن. كما فعل العباسيون مع الأمويين قبل عدة قرون في تكرار لا يتعظ بدروس التاريخ أو مصالح أمة الإسلام، وأن البشر جميعاً معنيون برسالة الإسلام. فلا يوجد كائن بشري يرغب في حكم هرقلي غبي يحافظ بكل قوة علي خطاياهم معتبراً إيها جزءاً متمماً للدين ذاته.

وعندما استولي الغزاة العثمانيون علي مصر كرروا الخطايا الأيوبية من بطش ونهب وزادوا عليها التدمير الممنهج لمصر.

وكانوا يهدفون إلي السيطرة علي العالم العربي كله ونقل الخلافة إلي إسطنبول ليكون لهم الزعامة الدينية والسيطرة علي جميع أراضي العرب.

ونجحوا بالفعل فتمكنهم ذلك من اكتساب مكانة دولية كممثل للمسلمين في السياسة العالمية . أوروبا بدأت تظهر كقوة ذات قدرات بحرية وعسكرية وطموح استعماري دولي عابر للقارات يري أن عداوته الأساسية هي في الشرق وأن الثروة هي في بلاد الشرق لكن المسلمين هم العقبة الأولى في ذلك وكان أكبر نجاح للأوروبيين هو تحويل الاعصار التركي إلي جهة الشرق بدلا من توجهه إلي أوروبا وكان ذلك أسهل علي الأتراك لضعف البلاد الشرقية (اتخذ الأباطرة الروس نفس الخيار التركي بالتوسع في اتجاه الشرق الإسلامي الضعيف والمفكك بدلا من التوسع غربا حيث العملاق الأوروبي الشرس فكان الصدام بينهما حتميا في سباق سيطرة عل مناطق القبائل التركية في آسيا.

ولأن تركيا اكتسبت قوة عسكرية كبيرة وخبرة من حملاتها الأوروبية وطورت استخدام المدافع المصاحبة للجيش، وأكسبها ذلك قوة كبيرة في الحرب يفتقدها الشرق كله خاصة دولة المماليك في مصر والشام التي اقتربت من نهاية العمر وبدأت عوامل الضعف تفتك بها فطمع العثمانيون في الاستيلاء علي الإمبراطورية المملوكية والسيطرة علي المساجد الثلاثة في القدس ومكة والمدينة ونقل الخلافة إلي تركيا أي أن يكون الخليفة تركيا وليس عربيا، لأول مرة منذ ظهور الإمبراطورية الهرقلية "الوراثية" الإسلامية مع بني أمية ثم بني العباس، وما تشظى منها من ممالك أصغر.

أما العدو الثاني للأتراك فهم الصفويون وكانت دولتهم في طور الإنشاء ولم تكتمل قوتهم بعد. حتى الدعوة الشيعية نفسها لم تكن قد انتشرت في إيران بشكل كاف والنتيجة هي أن سيطرة العثمانيين علي الدولة المملوكية كانت كافية مؤقتا لإثبات سيطرتهم علي العالم الإسلامي مؤقتا .

\*\*\*\*\*

## مصر وأهل السنة أول ضحايا البيزنطية العثمانية

لهذا كانت الدولة المملوكية السنية عدوهم الأول وليس الشيعة كما يدّعي دعاة الطائفية و العثمانية "البيزنطية". واستعادت اسطنبول بتوسعها العربي جميع ما فقدته بيزنطة الرومية (القسطنطينية) من ممتلكات على يد الفتح الإسلامي العربي. وزادت عليها احتلال جزيرة العرب واليمن فتدخل الغرب لتقليص ذلك التورم التركي المفتقر إلى الثبات السياسي، ويعانى من الفساد الإداري والتخلف العلمي. كان التورم العثماني انتصارا حضاريا واستراتيجيا لأوروبا. ولأجل جعله ثانا ودائما كان لابد من تثبيته بعنصر منتمي حضاريا وعرقيا وعقائديا للغرب وكان الحل هو إقامة إسرائيل اليهودية على أرض فلسطين وغير بعيد عن بيزنطة العثمانية في إسطنبول وكان وضع المسلمين قد تدهور /سياسيا وعقائديا وحضاريا/ لدرجة لا تمكنهم من الحفاظ على أهم مقدساتهم في الحجاز فكان القرار بتهويد تلك المناطق بنظام ومجموعة طقوس شكلية تسترضي العوام ولا تقترب بهم من حقائق الدين على الطريقة التركية، يكفي دولة الإسلام شعار وراية فأقاموا النظام السعودي والديانة الوهابية. في كيان سياسى ديني مخادع غير بعيد عن اسرائيل القريبة من تركيا، ويبقى العالم الإسلامي تحت السيطرة والملاحظة الأوروبية الدقيقة. ويبقى العرب في حالة موت سريري وغيوبوبة دائمة.

دخل العثمانيون كأحد العناصر الأوروبية المتنافسة والمتصارعة ولكن بوجه عام استخدم الأوروبيين العثمانيين كحائط صد يحجز عنهم أخطار العالم الإسلامي ويمنع التآثر "الصينيين" من الوصول إلى

بحر الروم (الإسم القديم للبحر المتوسط). وكذلك يتوازن الترك/ بدعم من الغرب/ مع الخطر الروسي علي أوروبا وظل الحال علي ذلك منذ عهد سليم وحتى اليوم .

إن تركيا تقدم خدمة أساسية حضارية واستراتيجية لأوروبا في كبح العالم الإسلامي وحصاره وأيضا تتوازن مع الروس وتسد أمام الصين الثغرة التي تقدم منها التتار في أيام عاصفة التتار، ومحاولتهم السيطرة علي العالم الإسلامي والزحف منه إلي أوروبا من جهة الأناضول وقد جرب التتار الزحف علي أوروبا من جهة روسيا وحققوا فيه نجاحا.

ومهما كانت العصبية الصليبية في أوروبا ضد تركيا كون شعبها مسلما في النهاية، فإن واضعي السياسة في أوروبا يعلمون أن الجمهورية العسكرية "القيصرية" التي أنشأها مصطفى كمال أتاتورك علي أنقاض العثمانية البيزنطية بعون من يهود الدونمة ومن خلفهم يهود أوروبا. هي جزء حيوي من الأمن الأوروبي ومكمل للدور الإسرائيلي في تكبيل العالم العربي واحتجازه بعيدا عن أوروبا بسياج من قوة يهودية فوق الأراضي العربية (إسرائيل والسعودية) أو ملاصقة للعرب (تركيا). وهي قوي تابعة عقائديا واستراتيجيا ومصريا بالقارة الأوروبية.

\*\*\*\*

## معارك دولة المماليك مع السلطان سليم

الصدام بين العثمانيين والمماليك كان صراعا بين قوة في عنفوان الشباب وهي الأتراك وقوة في طور الزوال، هي الدولة المملوكية.

كانت النتيجة محسومة سلفا وما تحقق من هزيمة للمماليك في معركة (مرج دابق) كان غير مفاجئ .

كان السلطان سليم العثماني قد حدد موقفة النهائي قبل دخول المعركة وهو إسقاط المماليك والسيطرة علي بلادهم بينما السلطان الغوري قائد المماليك دخل الحرب وهو يهدف إلي الصلح وكان ذلك واضحا في جميع تحركاته .

فما أن وصل إلي حلب حتي أرسل إلي سليم يطلب منه الصلح. وبدأ خطباء المساجد يتحدثون حسب طلب السلطان عن مزايا السلام. شجع ذلك سليم علي المضي قدما إلي المعركة ورفض الصلح. والفرق كان كبيرا بين الجيشين. فالموازن تميل بشده إلي الجانب العثماني، الجيش الأكثر خبرة وتفوقا خاصة في استخدام المدافع في ميدان المعركة وهو ما فعله نابليون عند حربة للمماليك في معركة أمبابة عام 1789 مكررا نفس دروس معركة مرج دابق خاصة في استخدام المدفعية واعتماد الجنود علي البنادق أكثر من اعتمادهم علي السيوف. ولكن ممالك مصر في معركة أمبابة أمام نابليون لم يظهروا أنهم تعلموا أي شيء من كارثة مرج دابق " فأثبتوا أن التاريخ لا يفيد". ( لا يفيد الغافلين لهذا يدفعون الخسائر مضاعفة).

وكرر المماليك نفس الأخطاء في المعركتين (امبابة ومرج دابق) وهي الذهاب إلي أرض المعركة وكأنهم ذاهبون إلي استعراض سلطاني في شوارع القاهرة بكامل الزينة للمحاربين والخييل معتمدين علي شجاعتهم الفائقة ومهارتهم كفارسان.



في نفس الوقت كان الجيش المملوكي في الحالتين مليئا بالخلافات والمؤامرات والتنافس من أجل الوصول إلي السلطة.

طريقة انتقال السلطة منذ أواسط العصر المملوكي تحولت من الوراثة إلي الانقلاب المسلح والتآمر بين كبار الأمراء المدعومين أحيانا بقوة خارجية.

وكان من الأسباب الأساسية لهزيمة السلطان الغوري في معركة (مرج دابق) هو الخيانات خاصة خيانة "خاير بك" الوالي علي حلب، وكان علي اتفاق مع السلطان سليم الذي أطلق عليه لقب "خاين بك" وكان يتولى قيادة الميسرة في جيش السلطان الغوري.

أما قائد الميمنة فقد كان والي حماة المسمى "جان بردي الغزالي" - زوج أخت طومان باي - وكان متورطا في الخيانة مع خاير بك وتحت قيادته.

ووضع الغوري لقيادة مقدمة جيشه نائبة في الشام "سيباي" وكان رجلا مخلصا وقويا، ولكن الغوري كان يشك في نواياه ولم يعمل بنصائحه رغم أنها كانت نصائح سديدة. فكان ينصح الغوري بأن لا يدخل حربا في ذلك العالم الذي يعاني فيه الشام من القحط. وكان لا يريد أن يحضر السلطان بنفسه لقيادة المعركة بل كان يريد أن يتلقى هو التعزيزات من مصر ليقا تل سليم في الشام ولكن السلطان الغوري شك في نواياه. فتولي هو القيادة وشكل قوة تأديبية "تجريدة". وكأنه ينوي السير في مهرجان شعبي في القاهرة. ظنا منه أنه سيخيف سليم بذلك المهرجان الضخم ويجعله يقتنع بالسلام فكانت طريقته في الحشد والحركة مهزلة كاملة. ولا تخفى دلالاتها علي القادة العثمانيين ذوي التجربة. وفي ميدان المعركة في مرج دابق ، قسّم الغوري جيشه إلي ميمنة وميسرة ومقدمة ثم أقام لنفسه سرادقا كبيرا في الوسط محاطا بالقضاة ورجال الصوفية والخليفة العباسي الذي كان يعمل لدي المماليك في مصر. ودارت المعركة (في أغسطس عام 1016). ومنذ البداية وقعت فتنة بين المماليك الذين في المقدمة والمماليك التابعين للسلطان الغوري وأدي ذلك إلي فرار المماليك جميعا .

وكان خاير بك، قائد الميسرة هو أول الهاربين وتبعه الخائن الآخر جان بردي الغزالي قائد الميمنة وكلاهما كان طامعا في حكم مصر .

وجد الغوري نفسه مكشوبا مع عدد قليل من الأعوان وأخذ ينادي بأعلي صوته (هذا وقت المروءة ، هذا وقت النجدة ) ولكن المماليك لم يتوقفوا عن الهرب حتي أن حامل راية السلطان طوى الراية وكان المعركة قد انتهت بالهزيمة وكانت المعركة بالكاد بدأت.

وسقط السلطان الغوري من فوق فرسه ومات، وقيل أن رأسه قد قطعت ولم تظهر له جثة بين القتلى.

وقتل من أمراء الشام أكثر من أربعين منهم سيباي نائب السلطان في الشام .

استولي السلطان سليم علي خيام السلطان الغوري وما فيها من أسلحة ومال وتحف!! .



## الهدف من الحرب:

تحديد الهدف من الحرب بشكل واضح يعتبر من الأساسيات. دخل السلطان الغوري إلي الحرب وفي الحقيقة كان يسعى إلي السلام لهذا كانت تجهيزاته غير حقيقية فكانت الهزيمة من نصيبه. وقد حدث ذلك في عصرنا الحديث وفي منطقتنا العربية عدة مرات .

أهمها حرب الرئيس عبد الناصر عام 67 مع إسرائيل التي كانت تهدف إلي التهويل للحصول على شروط سيادية أفضل لمصر في خليج العقبة.

ودخل عبد الناصر حرب 67 بدوافع شخصية واستعراضية، أملا في نصر سياسي سهل يعزز زعامته على العرب في منافسة شرسة مع المنظمات اليسارية والقومية في بلاد العرب.

كما دخل السادات حرب 73 بهدف تحريك مفاوضات مع إسرائيل تحت إشراف أمريكا لاستعادة سيناء والتطبيع مع إسرائيل.

ودخلت حماس حرب غزة وأدارت المفاوضات منذ البداية في قطر من أجل صفقة سياسية مع إسرائيل تحت شعار تبادل الأسري وفك الحصار عن غزة وصولا إلى مكانه دائمة لحماس في حل فلسطيني معترف به دوليا، ومدعوم مباشرة من تركيا ومشيوخ النفط.

## الغوري: مهرج يقود حرب أفيال:

كان الغوري احتفاليا، ساعيا إلى حل تفاوضي بدون نية في حرب أو قدرة على الفوز فيها . الأمر الذي أدركه العثمانيون فأصر سليم على الحرب اقتناصا لفرصة نادرة لتحطيم دولة المماليك بضربة عسكرية واحدة (وهو نفس موقف قادة إسرائيل عندما لا حظوا تهريج عبد الناصر وتظاهرتة العسكرية الفارغة في سيناء فقرروا ضربه فورا وبقوة حتى أن قائد الجيش أو الطيران خلع الرتب العسكرية عن أكتافه وهدد بالاستقالة فورا إذا لم يهاجموا المصريين).

الغوري في حركته لمحاربة سليم في شمال سوريا، موكبه كان مهزلة بكل بمعنى الكلمة. وكأنه مهرج في سيرك يتقدمه سلطان مخرف، هو صاحب السيرك ومديره ولاعبه الأول، وأكبر ضحايا لعبته الخطيرة.

فقد خرج من مصر في موكب تتقدمه الأفيال المزينة !!. ولا ندري الحكمة في ذلك فلا هي نافعة في القتال أو تخيف أحدا في ذلك الزمان. ولم يذكر التاريخ أي دور في المعركة لأفيال الغوري. إضافة إلى تأثيرها الكبير في سرعة ذلك الموكب الاحتفالي الضخم وتكاليفه.

وكانت حَمَلَة المباخر والمَغْنِي، وآلات السلاح الفاخرة التي تستعمل في المواكب الرسمية في القاهرة مثل السيوف والسروج المذهبة المرصعة بالجواهر حملت علي خمسين جملا !!.

وكان هو نفسه يضع في أصابعه خواتم الذهب والياقوت والزمرد ويرتدي الثياب الفاخرة ولا يشرب إلا في طاسات من ذهب وفي أثناء سفره إلي الشام كان يقيم احتفالا في كل بلد. وزينت له دمشق سبع أيام، زينة كبيرة ونُثر الذهب علي فرسه وفرشت تحت حوافره بسط من الحرير (تعود سكان الشام علي الحروب والفتوحات واستقبال الغزاة بالزيينات وتوديعهم باللعنات. وبلغ ذلك ذروته في العهد الأيوبي،

ومع التاتار والخوارزميين والمماليك، وغيرهم وقد استقبلوا سليم التركي بمثل ما استقبلوا به الغوري المملوكي. القاهرة فعلت ما فعلته دمشق لولا طومان باي الذي حطم تقاليد الخنوع المتوارثة في مصر). أمير حماة (الخائن جان بردى الغزالي ) أقام للغوري احتفالا أكبر مما أقامته دمشق .

لقد خاض سليم الأول معركة احترافية ناجحة للغاية، وقتل معظم جيش الغوري فحصدتهم المدافع التركية. وبنادق قوات الإنكشارية المشهورة بالوحشية. أما السلطان الغوري فقد أدى دورا فاشلاً في "مهرجان الفيل" السلطاني الذي أسفر عن هزيمة غيرت مجرى التاريخ الإسلامي.

## **طومان باي سلطان الشعب المصري:**

في القاهرة تم إعلان طومان باي (ابن شقيق السلطان الغوري) سلطانا علي مصر بعد مقتل السلطان قانصوه الغوري .

الوزير الأول لدي السلطان سليم ويدعي "سنان باشا" كان رجلا ذو كفاءة وعقل راجح. وكان يري أن يكتفي سليم بأخذ الشام ويترك مصر ، وقال المؤرخون أن سليم استمر في الحرب لغزو مصر بتحريض من خاير بك الذي كان نائبا عن السلطان الغوري في حلب.

تشير الأحداث الى أن السلطان سليم كان الأفضل من بين العثمانيين الذي فهم جيدا طبيعة الصفقة الجديدة مع أوروبا وطبيعة النظام الدولي الذي تحدد بينه وبين أوروبا، بأن تكون تركيا العثمانية أقرب إلى الروح الرومية البيزنطية القريبة من أوروبا وجزء من حضارتها و حاميتها من جهة الشرق ضد المسلمين والروس وإغلاق الطريق أمام الصين. أي تأمين أوروبا من الأخطار التي قد تأتي من الشرق. وسليم أول من بدأ في تطبيق ذلك التفاهم " الحضاري " فتحول إلى محاربة مصر والعالم السني العربي ثم تحول بحماس طائفي مفتعل لمحاربة الشيعة في إيران، حتى لا يتبقى غير العثمانية البيزنطية في العالم الإسلامي. لتقف امبراطوريتهم التركية بين أمم أوروبا كقوة عظمى لا غنى عنها. و ما لبثت الصراعات داخل الأسرة العثمانية (التي بدأها سليم نفسه بقتل أبيه وإخوته الذكور ليفتح لنفسه طريقا إلى السلطنة). صراعات الأسرة الحاكمة أضعفت الدولة وأطمعت فيها (الأصدقاء والحلفاء) الأوروبيين الذين أطلقوا عليها (رجل أوروبا المريض) فانقضوا عليها يفترسونها.

الحضارة الإسلامية سقطت آخر قلاعها المناوئة للتمدد الأوروبي مع سقوط المماليك الذين كسروا التاتار في عين جالوت وطردهوا أوروبا من الشام . وطاردها التسلسل البرتغالي في أفريقيا والهند.

كخطوة أولى للسيطرة على العرب قرر سليم الأول دخول مصر وتحطيمها استكمالا لرسالة الحروب الصليبية التي رغب فيها. لويس التاسع ملك فرنسا و امبراطور ألمانيا من بعده وفشل كلاهما بسبب أنهم حاولوا غزو العالم الإسلامي تحت راية الصليب فتجمع المسلمون ضدهم بدافع الحماسة الدينية. ولكن هذه المرة أرسلوا القيصر العثماني سليم الأول، حاملا راية الإسلام الشكلى وحولوا الخلافة من هرقلية عباسية "عربية" ..إلى بيزنطية عثمانية.

وتبنوا الشعار المذهبي لإثارة حماسة دينية تدعم الأتراك الذين ادعوا أنهم الحماة لأهل السنة والجماعة في مقابلة الشيعة الصفويين في إيران .

وبهذا استخدموا الصراع المذهبي والطائفي للقفز عن عقبة الاختلاف القومي بين الأتراك من جهة وباقي الأجناس الإسلامية الأخرى، غير التركية. مثل العرب والأكراد والفرس والأتراك المسلمين غير البيزنطيين من جهة أخرى .

وكما ضخموا من خطورة الخلاف المذهبي مع الشيعة كلما ازدادت أهمية الأتراك لدى المسلمين السنة كحامي لهم وارتبطت الهيمنة التركية ليس بالاحتلال العسكري المباشر بقدر اعتمادها على اشتداد ودموية الصراع الطائفي بين السنة والشيعة.

ورغم انتهاء السيطرة العسكرية للأتراك علي العرب إلا أن النفوذ التركي مازال قائما في البلاد العربية والإسلامية بفضل تصعيد الصراع المذهبي بين المسلمين، وهنا تلتقي المصالح التركية والمصالح الإسرائيلية والأوروبية لنفس الهدف لدرجة أن قدمت إسرائيل نفسها كحليف لأهل السنة مع الأتراك لحماية السنة من أخطار إيران والشيعة. أهل الإسلام النفطي والتنظيمات التابعة لهم. كانوا في مقدمة من رحب وشارك في التحالف وحارب مع إسرائيل ضد المقاومة الفلسطينية و ضد اي مقاومة مصرية.

وقوة إسرائيل تعتمد على إشعال الصراع الطائفي بين المسلمين. وهذا سر الالتقاء الاستراتيجي بين إسرائيل وتركيا حتي الوقت الحالي. فكلاهما شريك في عملية حصار العالم العربي ضمن الجدار الذي يمتد بطول شرق وجنوب سواحل البحر المتوسط. إن قوة إسرائيل تعتمد على قدرتها على إحداث الفتنة بين المسلمين قبل قدرتها علي إيقاع الهزيمة العسكرية بهم. كذلك تزداد القيمة الجيوسياسية لتركيا باستمرار وتتعيد الصراع العنيف بين السنة والشيعة.

\*\*\*\*

## تكامل وتواصل الخبرات التاريخية

### بين أعداء مصر

استفاد سليم من الخبرة الصليبية الفرنسية والألمانية في حملته علي مصر والشام كما استفاد من الخبرة الأيوبية في تخريب مصر وإضعافها إلي الحد الأدنى وهو ما فعله اليهود بعد الاستيلاء علي مصر بعد اتفاقية 1979 "اتفاقية السلام" حيث بدأوا من حيث انتهى الأتراك في مصر مستفيدين من التجربة التركية والأيوبية في تخريب مصر . السلطان سليم كان يدرك قوة طومان باي وشعبيته بين المصريين وأنه أقرب لأن يكون سلطانا مصرية وليس مملوكا يحكم مصر. وأن المصريين إذا وجدوا زعيما مثله فقد يتسببون في مشاكل خطيرة للأتراك .

مدن الشام استسلمت بسرعة، حلب وهي أكبر المدن هناك وكان يحكمها خاير بيك. دخلها سليم بدون أي مقاومة وزينت له المدينة وأوقدت الشموع ليلا (كالعادة مع كل محتل جديد).

خاير بك عندما عاد هاربا من ميدان المعركة إلي حلب خلع زي المماليك وأرتدي زي العثمانيين وأخذ يدعو الناس إلى طاعتهم وقد شبّه بعض المؤرخين السنة دور خاير، بأنه قام بدور شبیه بالدور الذي



قام به ابن العلقمي بإسقاط الخلافة العباسية وتمكين هولاكو من دخول بغداد وكذلك فعل خاير بيك بتسليم حلب أهم مدينة إلي الأتراك بعد أن خان السلطان الغوري وهرب من المعركة وكان قائدا لميسرة الجيش المصري.

قام سليم بقتل كل من التجأ إلي حلب حتي من رجال الدين والصوفية الذين كانوا مع السلطان الغوري وأمر سليم بقتل كل من وقع في الأسر بين يديه ولم يرحم أحداً . وانتهى الأمر بإلغاء الخلافة العباسية واستبدالها بأخرى صناعة تركية. ولم يعتبر الفتنيون أحدا مسئولاً عن كل تلك الجرائم. وكأن إلغاء الخلافة العباسية شئ مسموح به للأتراك فقط. وحيث أنهم لم يجدوا بالقرب من مسرح جرائم سليم أي شيعي، سوي "خاين بيك" الذي تصادف بكل أسف أنه من أهل السنة. فاصطنعوا لأجله شهادة بأنه تحول إلى نصف ملاك في الدقائق الأخيرة من حياته كما سيأتي ذكره.

وقد أشتهر سليم بحبه الشديد لسفك الدماء حتى أنه قتل أبيه وأخوته من أجل الوصول إلي العرش وأغلب من قتلهم سليم في حملته تلك كانوا من المصريين.

## الفصل الثاني :

### معارك العثمانيين في مصر

#### معركة غزة

غزة هي شقيقة مصر وتوأمتها المقيم فهي نهاية الشام وبداية مصر. ولم تحدث أي حركة عنيفة أو تاريخية إلا مرّت من غزة ذهاباً أو إياباً. واعتبر المؤرخون أنه لم تحدث في الشام معركة بعد مرج دابق بين المصريين والأتراك إلا في غزة .

فنائب السلطان الغوري في غزة كان قد طلب النجدة لمواجهة زحف سليم فأرسل اليه طومان باي من الجنود حوالي عشرة آلاف. وبعض المماليك الذين كانوا في المدارس الحربية المملوكية (الطباقي) وهم مجرد طلبة لا خبرة لهم في القتال.

وأرسل بعض رماة البنادق فوق الجبال. في المقابل هاجم العثمانيون غزة في أعداد كبيرة جدا بقيادة الوزير سنان باشا.

بينما ذهب سليم الأول لزيارة بيت المقدس (أول المساجد الثلاثة يسيطر عليه الأتراك).

تسلح الجيش العثماني بالكثير من البنادق والمدافع الكبيرة التي حملت علي عجلات خشب تسحبها أبقار وجاموس في مقدمة الجيش .

- وقد أنتقم العثمانيون من أهل غزة. وقتلوا ألف من الرجال والنساء والأطفال بسبب تعاطفهم مع المصريين.

- زادت المشاكل في القاهرة وزادت معها الأخطار والمصاعب أمام طومان باي سلطان مصر الجديد فقد واجهته مشاكل مثل :

أن الطلاب المدارس العسكرية من المماليك غضبوا عندما سمعوا بمقتل السلطان الغوري فأحرقوا الأسواق التجارية في القاهرة .

ويقول المؤرخ المصري ابن إياس عن ذلك (لولا همة طومان باي في ذلك لخربت القاهرة عن آخرها).

- تفاقمت مشاكل القاهرة بعد هزيمة غزة عندما هاجر اليها أهالي الشرقية وبلبيس خوفا من النهب والقتل إذا جاء العثمانيون وكانت هجرتهم من الكوارث. إذ قلت الأقوات وارتفعت الأسعار وقل الدقيق والخبز وتعطلت الطواحين .

- طومان باي وجد نفسه معرضا للخطر بشكل مباشر من الأمراء المماليك الذين وصلوا من الشام بعد الهزيمة في مرج دابق .

وكعادة الضباط في أي جيش منهزم، كان اهتمامهم الأول، هو الاستيلاء علي السلطة والانقلاب علي النظام القائم.

وكان بعضهم يري نفسه هو الأحق بتولي حكم مصر واضطر طومان باي إلى سجن بعضهم خاصة الذين سلموا مواقعهم بدون قتال .

مثل نائب قلعة حلب الذي تركها وهرب بدون قتال علي الرغم أنها كانت تحتوي علي ذخائر الجيش المصري وأمواله.

بدأ سليم لعبة استخدام الشرع للطعن في أهلية طومان باي تولية السلطنة في مصر وكان سليم قد أسر عددا من قضاة مصر ومعهم الخليفة العباسي المتوكل علي الله الذي كان مرافقا للسلطان الغوري في مرج دابق .

تولي السلطان سليم في رسالة أرسلها طومان باي مسئولية الإفتاء بنفسه قائلا بأن الخليفة العباسي والقضاة قد بايعوه فضلا عن أنه (سليم الأول) ملك إلي عشرين جد، بينما طومان باي مملوك يباع ويشترى ولا تصح له ولاية (هذا رغم أن سليم تولي السلطنة بعد أن قتل أبيه وأخوته وكان تلك طريقة شرعية للوصول إلي الحكم . فهل تكرر القتل لمدة عشرين سلطانا عثمانيا يجعلها طريقة شرعية؟؟).

غير أن أفدح المشكلات التي واجهته هي عدم وجود المال بين يديه فالسلطان الغوري أخذ معه كل مال مصر الذي بلغ مائة مليون دينار مصري وترك كل ذلك في قلعة حلب تحت إشراف ابنه .

حتي أن أمراء المماليك الذين ساروا مع الغوري أخذو معهم معظم أموالهم وتركوها في حلب. واستولي سليم الأول على كل ذلك.

طومان باي في ذلك الموقف العصيب لم يجد معه المال اللازم للإنفاق علي العسكر والسلاح .

فلم يجد في الخزائن لا درهما ولا دينارا حتي الأموال التي كانت في قلعة الجبل قبل خروج الغوري إلي المعركة في الشام يقال أنها سُرقَت وبعد هزيمة المماليك في غزة أمتنع الفلاحون من دفع الضرائب (لأن الحكم القادم سوف يجعلهم يدفعون الكثير وذلك حسب التجربة التاريخية الطويلة للمصريين مع الاستعمار).

نتيجة لحرب مرج دابق وغزة أدرك طومان باي أهمية البارود وأسلحته (البنادق والمدافع) لاسيما أنه قد سمع بما أسماه المؤرخ المصري ابن إياس مدفعية النفوط (ربما يقصد البارود) المرعبة والتي كانت سببا في نصر العثمانيين في المعركتين.

فيقول ابن إياس: إنه حتي وهو أمير غيبة نائبا عن الغوري كان قد أظهر همة في الحصول على البارود وآلاته .

فلما ولي السلطنة بعد مقتل الغوري ، زاد عزيمة في سبك المكاحل (مدافع صغيرة )، وعمل البنادق .

\*\*\*\*

## " سلطان حارتنا" مع جيش الجدعان يقاتل الإنكشارية في حوارى القاهرة

### "حرافيش" العاصمة مسحوا أوساخ حوارى المحروسة بكرامة الإنكشارية

كذلك جمع ما لا يحصى من الرماة والأسلحة النارية حيث كان جلهم من المصريين والسودانيين الذين يرمون بالمكاحل والبنادق ، فكانوا دائمي التمرين حتي أن القاهرة كانت ترتج لقذائفهم. يبدو من ذلك أن نصيحة " برسباي" نائب السلطان الغوري في الشام كانت صحيحة تماما لأن تلك الاستعدادات التي قام بها طومان باي، لو أنها أخذت فرصة كي تكتمل، لتغيرت مسيرة التاريخ في مصر والمنطقة. فكما أن معدات الجيش المصري كانت لا شئ إذا قورنت بمعدات الأتراك. إلا أن الجيش التركي لم يكن به قائد يوازي طومان باي كما ثبت ذلك في المواجهات العسكرية.

كما أن حرب الأزقة في القاهرة أثبتت أن قوة جندي المشاة لا تقاس بضخامة جثته وقوته البدنية، أو حداثة سلاحه بل بحالته المعنوية التي تساهم القيادة في صنعها كما فعل (سلطان حرافيش مصر) "طومان باي" وهو فارس قل نظيره قاتل بنفس الجدارة، وربما بسعادة أكبر ومعنويات أعلى في الحوارى/كتفا بكتف/ مع جنوده المصريين "الأرازل" من حَمَلَة المقاتل والأحجار. ضد جنود الإنكشارية الذين أربعوا جيوش أوروبا. ولكن "سابلة" العاصمة مسحوا أوساخ حوارى المحروسة بكرامة الإنكشارية.

- كان وجهة نظر طومان باي صحيحة تماما في استخدام البارود والبنادق واستخدام المدافع المتحركة.

وأن تشكيل جيش من المصريين المخلصين هو الحل الأساسي في مسألة الدفاع عن مصر ، وليس الحل هو العساكر المختطفين كالمماليك في الشام ومصر أو الإنكشارية كما في الجيش التركي عند سليم .

- هنا ملاحظة هامة وهي أن طومان باي بدأ إختيار القوة الشعبية الصحيحة التي قامت بالثورة ضد الحاكمين الأيوبي والمملوكي وهم العرب وأهل النوبة وأهل مصر(عرب وفلاحيين) وكما سيأتي بعد ذلك أنه حتي الأماكن التي نشطت فيها مقاومة طومان باي ضد الأتراك كانت في معظمها هي المناطق التي شاركت في الثورات ضد الأيوبيين والمماليك، وضد الإنجليز في القرن التاسع عشر والعشرين.

حتي غزة شهدت أهم مواجهة بين المصريين وحلفائهم من الخوارزميين في الحرب ضد التحالف بين ملوك الشام و الأيوبيين الذين جاءوا لغزو مصر مع تحالف مع الإمارات الصليبية في الشام ، وانتهت المعركة بنصر ساحق علي الصليبيين والشوام الأيوبيين .



بعد تجهيزات طومان باي بالأسلحة الحديثة من بنادق ومدافع مع جنود مصريين عرب وفلاحيين وسودانيين ، أراد أن يهاجم جيش سليم في الصحراء قبل أن يصل إلي مصر خاصة وأن سليم قد أخطأ بأن تقدم من وسط سيناء وليس من طريق الساحل. وكانت الرحلة شاقة وقاسية علي الجيش التركي وهي فرصة مناسبة للمصريين لمهاجمتهم وكسرهم في الصحراء، خاصة وأنهم أصبحوا يمتلكون مدافع خفيفة وثقيلة صنعوها في القاهرة.

ولكن أمراء المماليك الذين مع طومان باي اعترضوا علي تلك الفكرة. فأضطر السلطان إلي التخلي عنها منتظرا مجيء العثمانيين. الأمراء كانوا يعترضون ويضطرون السلطان إلى تغيير خطته الصائبة إلى خطط أسوأ. ولكن حرافيش حرب الشوارع في القاهرة كانوا يقدسون أوامر السلطان وينفذونها فورا وبسعادة، لأن السلطان قائد وزميل حرب. وهو أيضا ضيف خاص جدا على حارة (الجدعان) كما أنه المقاتل الوحيد في الحارة الذي يمتلك سيفاً مملوكياً شديد التقوس وليس نبوتاً ، أو مقلعاً أو أحجاراً يحملها في ذيل جلبابه المتسخ الممزق و"سلطان حارتنا" لم يكلف أحد بشئ لا يستطيع هو تنفيذه بنفسه.

"العربان" الذين/ حسب المؤرخين/ مارسوا علي العثمانيين غارات السلب والنهب. (هذا ضد جيش معادي يسمى حرب عصابات. خاصة إذا أضيفت إليها عمليات أشد عنفا مثل الاختطاف والقتل والتخريب . وإلا فما هي الحرب إذن؟؟. إنها مثل اسمها، شيء غير لطيف بالمرّة)؟؟

- أمر السلطان " بإحراق بعض الشؤن (مخازن الغلال) التي تقع خارج القاهرة حتي لا تقع علي أيدي العثمانيين.

- تجهز طومان باي لمقاومة العثمانيين في منطقة المطرية (الريمانية) وتقع خارج أسوار القاهرة من ناحية باب النصر. فكانت المدافع تنقل من مسابكها إلى هذا المكان وهي مغطاة بالجوخ.

كانت تجربة طومان باي قصيرة خاطفة مثل البرق ولكنها اختزلت بشكل مركز الكثير من الدروس التي ينبغي أن يستفيد منها المصريون وباقي الشعوب الإسلامية لأنها جزء من التراث الإنساني .

استمرت مقاومة طومان باي للغزو العثماني فترة قصيرة - عدة أشهر - انتهت بشنقه على باب زويلة على يد الأتراك بأمر من سليم الأول.

الحقيقة أن الذي شنقه في باب زويلة كانت هي آمال الشعب المصري في العدالة والحرية وأمال المسلمين جميعاً في إقامة حكم إسلامي حقيقي وليس الإسلامي الوراثي المتعسف الذي يستخدم الدين كوسيلة لتثبيت الحكم وتشريع الطغيان والفساد وإقامة دولة الظلم بكل معانيها. أما الذي هزم طومان باي إلى جانب الخيانة هي خيبة وفشل عمه السلطان الغوري الذي لم يكن جاهزاً للحرب بأي شكل . فآخذ معه في موكبه المتخلف كل أموال مصر تاركا السلطان الجديد مفلساً. ووصلت يد الخيانة إلى المال القليل في خزينة قلعة الجبل، إنهما الخائنات خاير بيك وتابعه الغزالي (جاسوسان مصريان من أهل السنة والجماعة دمرتا تاريخ مصر والمسلمين ولكن للأسف ليس بينهما أو حتى قريب منهما شيعي لهذا أهمل مؤرخو الفتنة المتيقظة دوماً حتى مجرد ذكر اسميهما.

بنهاية عصر المماليك انتهت الفترة الهرقلية في الحكم الإسلامي الذي بدأها الأمويون واستمرت إلى أن انتهت علي يد نظام أشد خداعاً وقسوة يتخذ شعار الإسلام وهو نظام البيزنطية التركية .

السلطان محمد الفاتح العثماني فتح القسطنطينية وأسموها اسلامبول أو اسطنبول، ولكن ما لبث أن أعادها سليم إلى هويتها البيزنطية مرة أخرى.

فمن يومها أفتتح سليم عصر البيزنطية العثمانية بغزو مصر بطريقته الهمجية التي سجلها التاريخ وراح ضحيتها السلطان طومان باي الذي يُجمع معظم المؤرخين على أنه كان مصرياً أكثر منه مملوكياً.

كان استشهاد طومان باي هو لحظة الميلاد الحقيقي للنظام البيزنطي العثماني حتي أن سليم الأول عندما وصله خبر شفق طومان باي قال: (الآن حكمنا مصر). في الحقيقة كان يجب أن يقول: الآن عادت إمبراطوريتنا العثمانية إلى حقيقتها البيزنطية.

كانت هزيمة مصر أمام العثمانيين سريعة وساحقة وفارقة في التاريخ المصري والإسلامي ومليئة بالعبر والدروس لقوم يعقلون.

انهيار دولة عريقة مثل دولة المماليك حكمت لمدة ست قرون ليس بالأمر السهل وله أسباب كثيرة ينبغي الاستفادة منها واستيعابها بعمق وليس مجرد قراءتها ولكن للأسف لا توجد ضحية شيعية ندخل من خلال التشهير بها إلى التعرف بواحدة من أخطر فترات تاريخنا الإسلامي. فالدولة المملوكية التي دمرها البيزنطيون الأتراك قدمت للإسلام والسلمين أهم الخدمات التي لا يمكن مقارنتها بعجز وقصور خلافة العباسيين، فالمماليك قمعوا محاولة هولاكو للتقدم إلى الشام ومصر في معركة عين جالوت بقيادة السلطان المملوكي قطز، ومساعدته وصديقه (وقاتله) بيبرس الذي تسلمن بعده على عرش مصر.

الدرس الأساسي من سقوط الدولة المملوكية وهو نفس الدرس المستنتج من سقوط الأيوبيين ومن قبلهم العباسيين والأمويين هو الحكم الوراثي القائم على الظلم والجور.

فالدولة التي تقوم على الظلم لابد وأن تزول لأنها ضد فطرة الإنسان وضد أوامر الله ورسالاته . فالدولة الأيوبية مثلاً كانت من أقصر الدول عمراً في حكم مصر.

**أطلق الطغاة علي أنفسهم مسميات إسلامية كبيرة مثل الخليفة أو السلطان أو الأمير . ولكن استعارة اسم الإسلام بدون تطبيق شرائعه ليس الا خداعاً للنفس و الناس ويعطى فوائد مؤقتة لا تدوم.**

وجاء في الأثر (يدوم المُلْك مع الكفر ولا يدوم مع الظلم). قامت الإمبراطوريات الإسلامية في غالب عمرها على الظلم. ولم تطبق من الإسلام شيء سوى القشور والشكليات التي كانت في معظمها من وضع الظالمين واستحسان الناس لها، رغم أنها من الباطل، (واستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين).

واتخذت في مصر مواكب الطبل والزمر ورايات الفرق الدينية والمشايخ وحفلات الموالد والاحتفالات الدينية ومواكب السلاطين وختان الأمراء والملوك!!! وإرسال الكسوة الشريفة إلي الكعبة والمباخر إلي المسجد النبوي والقدس، وأحياناً إلى مسجد القسطنطينية.

أصبح ذلك هو الإسلام بينما تفشى الظلم والبغي ليس فقط بين الحكام وكبار مسئولتي الدولة. فالجميع أصبح يمارس أنواع الفساد التي يمكنه ممارستها رغم مخالفتها الظاهرة لصريح أوامر الدين.

فلم تحظ دعوات الحق إلا بأقل القليل من الداعمين لها، رغم أنهم أبدوا آيات من البطولة والإخلاص إلا أن طوفان الباطل كان أقوى فأغرقهم.

وفي عصرنا الراهن رأينا كيف أن أعدادا كبيرة من الشباب المجاهد في أفغانستان تحت ضغط الأمن والمطاردة والتشويه الإعلامي والحرب النفسية ذهبوا إلى العراق وتحولوا إلى دواعش ثم ذهبوا إلى سوريا وشكلوا تنظيم زعران الشام .

والذين ذهبوا إلى مصر تحول الكثير منهم إلى مليشيات لخدمة النظام الحاكم ويقاثلون أي محاولة للإصلاح. مَرَّ أكثر من ألف عام علي الأمة الإسلامية في تلك التجارب ولكن كَأَن شيئاً لم يحدث أو أن التاريخ لم يمر بنا أو أنه يمر ولكنه لا يعنينا نحن، بل يعني أناسا آخرين. وظهرت مدرسة فكرية تابعة للهرقلية الإسلامية، لتأخذ الناس بعيدا بتأويلات طائفية لفهم التاريخ مبنية علي ضيق الأفق وتهدر طاقة الأمة وقدرتها علي التفكير.

وتقنعها دينيا بوجود سبب طائفي يدين الطائفة المعادية للنظام بأنها (أهل الشر) وسبب كل الكوارث. وأن النظام مهما فعل فهو نظام جيد وشرعي فهو النظام السائد والمتغلب والحاكم منذ قرون. وهذا يكفي سواء كان متبعا للشرعية أم لا. إذ يكفيهُ أقل القشور التي يختفي خلفها ليصبح مكتسبا للشرعية وصفة الإسلام. وبالتالي لا تجب محاسبته أو انتقاده أو الاعتراض علي ما فعله أو حتي مجرد الإشارة إلى الانحرافات المزمنة التي استوطنت مفاصله وأدت إلي سقوط العديد من الإمبراطوريات الإسلامية وانتهت بالمسلمين إلي ما نراه الآن، بأن يكونوا أسفل الأمم ويتحكم فيهم أحط الخلق.

سقط طومان باي بفعل الخيانات الكثيرة وكأن الشعب كان يخون نفسه الا قليلاً من المخلصين الذين ضربوا أروع الأمثلة من التضحية والفداء ودفعوا أرواحهم ثمناً لذلك وأطلق عليهم المؤرخون والنظام الحاكم صفة "العبيد".

أما فقراء المدن فقد أطلقوا عليهم تسمية "الحرافيش" وألفاظ أخرى للتحقير. وحتى العرب في مصر أطلقوا عليهم (العربان). وتفشي فيهم الفساد والخيانة. على الرغم من دفاعهم المجيد عن مصر في معارك دمياط والمنصورة. رغم تاريخهم العظيم بالوقوف ضد الجبروت الأيوبي والمملوكي وقيامهم بثورات كبيرة كما ذكرنا قبلاً .

عرب مصر الذي قادهم يوما الشريف حصن الدين ثعلب الذي وقف شامخا أمام أول حكام المماليك، المتجبر (أيبك التركماني) رافضا طاعة المماليك لأن توليهم للحكم حكم شرعي انتهى الامر بعرب مصر بعد الحملات التي شنّها المماليك وتجريدهم من الأموال والسلاح والخيول إلي احترام قطع الطرق والإغارة علي القرى والاصطدام من وقت إلي آخر مع ممثلي السلطة الحاكمة.

حتى آلت قيادتهم إلي الشيخ "حسن مرعي" الذي خان طومان باي وسلمه الي سليم العثماني في مقابل رشايي كبيرة من الأرض والسيادة علي عرب مصر.

تكرر نفس الصورة الآن بخائن آخر من عرب سيناء هو "العرجاني" الذي جَنَّد البعض من أفراد عشيرته للعمل في خدمة إسرائيل بشكل مباشر ضد الفلسطينيين وإعادة سيطرة اليهود علي سيناء .

العرجاني هو إنتاج للنظام الظالم الذي أقامه عسكر مصر. ومرعي هو أنتاج للنظام الظالم الذي أقامه المماليك في مصر ومن قبلهم الأيوبيون الذين وضعوا الأساس. ومن قبل الجميع الخلافة العباسية التي أسقطت اسماء العرب من ديوان الدولة ومنعت توليتهم المناصب الكبرى. فصار العرب مواطنين من الدرجة الثانية في امبراطورية الخلافة العباسية (العربية).



يفسد "العرب" كما يفسد جميع فئات الشعب نتيجة الأمراض الأخلاقية والاجتماعية التي تتولد نتيجة الظلم حيث يتفشى الفقر وأعتداء الناس علي بعضهم والاحتكام إلي القوة واكتساب المعايش بأي وسيلة بدون عناية بمسألة الحلال والحرام.

والعرب لهم طبيعة قتالية وخبرة في الحرب ومناطقهم مفتوحة يسهل الفرار اليها والاختباء فيها، وفي كل الأحوال يحتفظون بشئ من الأسلحة مهما كان قليلا للدفاع عن أنفسهم واكتساب عيشهم بقوائم سيوفهم .

كما أنهم يعيشون ضمن قبيلة مترابطة تكسبهم قوة ومناعة بالنسبة لباقي فئات الشعب وحتى في مواجهتهم مع الحكومة فلهم دائما قوة يحسب حسابها.

- يسعى العرب والمسلمون إلي تغيير واقعهم السياسي بعد أن كشفت الأحداث الأخيرة ضعف بنيانهم الديني والفكري والأخلاقي وهم حتما، طال الزمن أو قصر، سيغيرون تلك الأوضاع بالقوة في صدام مع الصليبية الأوروبية والصهيونية التي تحيط بالشرق الأوسط بالتعاون مع البيزنطية التركية .

لن يعود العرب إلي حيث كان الأمر في أوقات الأمبراطوريات الإسلامية بداية من الأمويين ونهاية بالعثمانيين.

بل سيبدأون من النقطة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية وطبقا لنصوصها في القرآن والسنة الصحيحة. سيعود المسلمون إلي الإسلام من منبعه الأصلي وليس إلي الطقوس الشككية والفتن الطائفية التي استهلكتهم لقرون طويلة، فلن يستمر ذلك إلي الأبد.

لن يعود النظام العباسي ولا الأموي ولا المملوكي ولا التركي بل نظام يرتضيه المسلمون ويختارونه ليحقق لهم العدالة .

فلا تأتي مجموعة من المجرمين وهي تحمل مجهول الحال يرتدي السواد ويعلن أنه خليفة واجب الطاعة ومن لا يبايعه فسوف يقتل .. عشنا تلك المهزلة الدموية في عصرنا مرتين.

في المرة الأولى: مجموعة من المجاهدين العرب في أفغانستان عندما رأوا أن الجهاد قد أنتهى الي حرب أهلية بين المنظمات الفاسدة. ظهر فجأة خليفة تم تنصيبه في أحد أوكار مدينة بيشاور الباكستانية. ونفذ انصاره عمليات قتل واغتيال وأشاعوا الفوضى في بيشاور ومناطق الحدود وأرسلوا وفدهم إلي أسامة بن لادن وجماعته طالبين منهم البيعة. وطلبوا ذلك من حركة طالبان الأفغانية أيضا، وطعنوا في شرعيتها وشرعية أميرها الملا محمد عمر.

عندما فشل مشروعهم انسحب الخليفة بأمان الي لندن التي جاء منها إلي الجهاد، وتولى الخلافة على الأمة الإسلامية.

المرة الثانية: بعد الاحتلال الأمريكي لبغداد خرج علينا خليفة آخر التف حوله من تبقى من حرب أفغانستان. ومتطوعون جدد استنفرهم الإعلام الإسلامي التابع لشركة أرامكو (هذا في الزمن القديم قبل وصول عائلة روتشيلد الصهيونية مع بنوكها أسطورية النفاذ إلي كل شيء بسحر المال اليهودي).

فظهرت لنا داعش التي مارست أدوارها المعروفة في العراق وسوريا وأفغانستان برعاية إسرائيلية والمخابرات الأمريكية .

هذه التجارب من المفترض الا تتكرر مرة أخرى فليس أي شخص يدعي أنه خليفة يكون بالفعل كذلك. فالمسألة ليست مسميات بل أداء لواجبات محددة بالشرع في خدمة المسلمين في أمور دنياهم ودينهم.

كما أن تولى حكم المسلمين لا يتم قهراً أو اختطافاً وخفة يد. أو بالقتل الجماعي وحمامات الدم واستباحة أموال وأعراض الناس. كما لا يتم بالتوريث فهم ليسوا متاعاً أو عبيداً وبلادهم ليست عقاراً يباع ويشترى أو يسرق بقوة السيف. فالحاكم عليه مسئوليات كبيرة بقدر ماله من حقوق كبيرة. والحقوق والواجبات تحددها الشريعة للجميع وبالتفصيل.

وليس أي دولة تسمى نفسها دولة خلافة تكون كذلك بدون أن تتمتع بالعقلية الدينية التي تؤهلها بذلك. فليست الدولة التي تقيم علاقات مع إسرائيل والصهيونية العالمية تصلح لأن تكون دولة إسلامية حتي لو سمى طاغوتها الحاكم نفسه عابد الحرمين الشريفين. بينما يشيع الفحشاء والمنكر بين المسلمين. ويقهر الفئات القليلة التي تتمسك بدينها. كل ذلك لا يتوافق بأن يكون هذا الحاكم مسلماً في الأساس وليس ولياً للأمر واجب الطاعة يحرم الخروج عليه أو حتى انتقاده علناً، حتى ولو فعل وفعل .

\*\*\*\*

## المواجهات العسكرية بين طومان باي وسليم الأول

تكلمنا عن المواجهة بين السلطان العثماني سليم الأول وبين قانصوه الغوري سلطان مصر وكيف أنها كانت محسومة منذ البداية والموازن العسكرية والكفاءة والخبرة كلها كانت إلي جانب السلطان سليم وجيشه.

لأن قانصوه الغوري بدا كمجرد عجوز خرف خرج إلى الحرب في موكب ضخم تتقدمه الأفيال وكأنه سرك في مدينة مصرية .

وأصطحب كل شيء ليس له ضرورة مثل السيوف المذهبة والسروج المطعمة بالجواهر والفضة كما أصطحب معه جميع أموال مصر وكأنه كان يخشي من أن ينقلب عليه أعوانه في مصر. رغم أنه ترك فيها ابن أخيه طومان باي وهو ذراعه الأيمن وولي عهده .

ولكن الطبيعة المملوكية لا تثق في أحد وكان خاير بيك وهو أفضل مساعدي قانصوه الغوري. وقائد الميمنة في جيشه. كان من الخونة المتعاونين مع عدوه السلطان سليم.

\*\*\*\*

## مزايا جيش سليم الأول

كان له عدة ميزات مذهلة بمقاييس ذلك الزمان ويبدو أن سليم كان يتمتع بعقلية ممتازة في أدراك الحقائق بسرعة وعمق والتعلم من تجارب السابقين في الحروب وهي نفس الميزة التي تمتع بها طومان باي . ولكن طومان باي كان أسرع في الحركة وأكثر شجاعة وجرأة لولا أن الوقت لم يسعفه. فم منذ انتصار سليم في معركة مرج دابق وحتى بداية معارك سليم مع طومان باي كانت فترة قصيرة للغاية بحيث لم يتمكن من اتخاذ الاستعدادات المطلوبة وتطوير جيشه بالشكل اللازم.

وجيش سليم يتقدم في الشام بلا مقاومة وسط ترحيب شعبي وكأن الشعب كان ينتظر قدومه رغم أنه كان نفس الشعب الذي كان يرحب قبل أيام بجيش قانصوه الغوري .

واحاط بالسلطان سليم المنتصر والزاحف باتجاه مصر جيش كبير من الخونة الذين اشتراهم قبل المعركة وأثناءها أو انضموا إليه بعدها . وكانت الخيانة وتحويل الولاء هما من مهارات الحياة في ذلك العصر.

كان للخيانة وشراء الزمم دور أساسي في تلك الحروب ليس فقط الحروب الداخلية بين الأيوبيين بل حتي بين الأيوبيين والصليبيين والتتار فالجميع من السلطان وحتى الجندي العادي جاهز لتبديل اتجاه ولائه إذا تلقى رشوة مناسبة.

لهذا لم ينجح الأيوبيين في تحقيق أي انتصار دائم في الشام، وكل ما أخذه صلاح الدين استعادة الصليبيون مرة أخرى حتي القدس. وأوشك التتار علي احتلال الشام ومصر لولا بسالة المماليك وتهورهم وتدينهم الفطري القوي وهم قادمون من ممالك إسلامية وبيعوا كعبيد لممالك إسلامية أخرى وذلك من عجائب مسلمي ذلك الزمان البعيد: دولة مسلمة تحارب دولة أخرى مسلمة وتسمى النساء والرجال و الأطفال. لتستعبدهم أو تبيعهم في أسواق العبيد في عواصم المسلمين. فإين الإسلام في تلك الغابة البشرية المجنونة.؟؟ مسلم يختطف مسلماً أو يشتريه لبيعه لمسلم آخر!!.

كان قتل المسلمين مباحاً وسلب أموالهم وانتهاك أعراضهم عملاً مشروعاً في الحروب الإسلامية الداخلية وكأن السلطان المنتصر كان يفتح بلاداً كافرة وشعوب لم تعرف الإسلام من قبل وكانت القسوة مع المسلمين حتي داخل المذهب السني نفسه مفرطة للغاية.

ولم يحدث إنكار لتلك الجرائم العظمى سوى في القليل النادر. وكانت تغتفر لأنها تجري داخل المعسكر السني وليس للشيعنة فيها دخل والا كانوا تحملوا وزرها بالكامل إلي قيام الساعة وعُيروا بها إلي الأبد.

تلك النظرة الطائفية جعلت من الانحراف والجريمة شيء عادي لا تجري المحاسبة أو حتي الإشارة إليه (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً). ناهيك عن الأخطار الأخرى التي ذكرناها مثل عدم دراسة المشكلات بشكل موضوعي يساعد علي تلافي الأخطاء وتصحيح المسار وعلاج المشكلات المزمنة. فظل مسارا في اتجاه واحد لا يتغير في منحني ساقط دوما إلي الأسفل .

هناك من يريد لنا الاستمرار في ذلك، والبقاء علي تلك الحال ويغطي خيانتته بحماس مفتعل للمذهب أو بعداء جنوني للمذهب الآخر بدون حتي أن يحاول أتباع مذهبة بشكل صحيح وأصولي. بل يتلقى أصول دينية من وسائل التواصل الاجتماعي التي يسيطر عليها اليهود.

## حرب الأفيال ضد المدافع

### اختيار عاجز وليس أخلاقي

كان سلاطين المماليك قد فرضوا علي انفسهم حظرا في استخدام البارود في الحروب ضد المسلمين لأنه سلاح غير إسلامي وغير أخلاقي ويتنافي مع الشجاعة والفروسية فالمدفع يقتل الكثير من الناس وهذا مخالف للإسلام في رأي المماليك وليس في رأي العثمانيين. أدى ذلك إلى مهزلة في مرج دابق لتكون معركة بين المدافع التركية الفتاكة وبين أفيال الغوري البلهاء. التي لم يظهر لها أي دور ، وربما تورطت في الخيانة مع جماعة خاير بيك في مقابل حزمة من البرسيم.

يشير ذلك إلى خطورة امتناعنا عن دخول مجالات التسليح الجديدة التي يدخلها اليهود ، مثل المجال النووي. وفي الأخير يهددون غزة والمدن العربية بالسلاح النووي التكتيكي ونحن لانمتلك إلا صواريخ الكاتيوشا القديمة. فاصبح الفرق بين جيوشنا وجيوشهم كالفارق بين جيش السلطان سليم التركي وجيش الأفيال للسلطان الغوري.

فحظر المماليك استخدام البارود في الحرب رغم أنهم استخدموه بشكل جزئي في بعض المعارك مع البرتغاليين على خطوط الملاحة البحرية ولكنهم لم يتوسعوا في تصنيع المدافع ولا إستخدامها في الجيش، واستخدموا مدافع صغيرة (مكاحل) علي الطوابي في الثغور المصرية وكانت من مواقع ثابتة لضرب السفن المعادية.

طومان باي الغي كل المحظورات التي رأي أن الأتراك قد تخطوها فبدأ يتوسع في تصنيع المدافع وتدريب الجنود عليها واستخدامها كسلاح متحرك وليس ثابت وكان ذلك أجراً ثورياً في العسكرية المصرية ولكنه جاء متأخراً جداً وغير كاف .

ثانيا : أعتمد جيش سليم علي فلسفة القسوة في القتال، والانتقام من المدنيين بعد الحرب. وقد خدمهم في ذلك قوات الإنكشارية وهي تشبه تشكيلات المماليك في مصر. مكونة من أطفال تم أسرهم في أوروبا وتدريبهم كجنود مقاتلين شرسين موالين للسلطان.

هؤلاء الانكشارية لم يتورعوا عن إيقاع أكبر أذي وتنكيل بالناس بعد انتهاء المعارك وذلك بالطبع حسب أوامر السلطان وقياداتهم التي تديرهم وكان ذلك تطبيقا لسياسة التتار في الحرب النفسية علي الشعوب وهو ما يأخذ به الإسرائيليون الآن في إيقاع أكبر أذي بالمدنيين لإخافتهم وتحطيم معنويات الأعداء وفي المناطق القادمة للحرب وكان التتار عندما ينكون بأحد المدن الإسلامية وينقلون إلي مدينة أخرى كان الناس يستسلمون للتتار بدون قتال خوفا من انتقامهم. فكان تقدم الجيش التتاري سريعا بفعل الرادع النفسي ورعب الناس.

كما حدث في بغداد فلم تقاوم بأي شكل دفاعا عن الخليفة أو حتي دفاعا عن النفس والعرض والمال. فقط الخليفة قاوم سحبة إلي خارج غرفة الراقصات في قصر الترفيه.

سليم الأول عندما هزم قانصوه في معركة مرج دابق لم يترك أحد من جنوده حيا إلا من استطاع منهم الفرار .



وقطعت رؤوس الجثث ولم يستطيع أحد التعرف علي القتلى حتي جثة السلطان لم يتعرف عليها أحد ومازال مصيره مجهولا. وقد كان الغوري عبارة عن صندوق مجوهرات ضخمة يطمع فيه الكثيرون و علي رأسهم بالطبع سليم الدميم. لقد سرق الأتراك الجثة بما تحمله من جواهر.

وفي حلب دخلها جيش سليم واستولي علي قلعتها وما بها من كنوز الغوري كاملة بدون قتال.

فأعمل الإنكشارية السيف في المدينة والقلعة وقتلوا أمما كثيرة واستولوا علي ما في القلعة من أموال وكانت بها ميزانية مصر التي أصطحبها معه قانصوه الغوري في مهرجان الأفيال . خاير بيك زعيم الجواسيس العثمانيين كان واليا عن قانصوه الغوري في حلب وقد ملأ الشام كله بالجواسيس.

ودبر مع عملاء في قلعة الجبل في القاهرة سرقة ما تبقي من مال تركه الغوري هناك تحت تصرف طومان باي.

أحد الأسباب الرئيسية لنجاح حملة سليم علي مصر وهو سلاح التجسس الذي شرع في بنائه قبل معركة مرج دابق ووصل إلي شخصيات هامة جدا للنظام المملوكي في مصر وحتى تم تجنيد شقيق زوجة طومان باي بواسطة خاير بك ويدعي جان بردى الغزالي ولعب دورا هاما في الإيقاع بطومان باي واعتقاله.

المناطق التي دخلها سليم وجيشه شهدت انتقاما مروعا من الأهالي كما ذكرنا في حلب وكما سيأتي معنا في معركة القاهرة أو ما أطلق عليه بعض المؤرخين ثورة الحواري بقيادة طومان باي والتي انتهت بمجزرة ضد سكان الأحياء الشعبية الثائرين مع سلطانهم طومان باي فأمطرتهم جنود الإنكشارية وابل من الرصاص من فوق مآذن المساجد. (لأنها حرب إسلامية) كما يفهم ذلك الإنكشارية .

وبعد أن انتهت المواجهة وعاد الناس إلي بيوتهم بعد أربعة أيام من القتال أمر سليم قواته بتأديب سكان القاهرة فاقتحموا البيوت وقتلوا الناس بداخلها حتي كاد أن يفني سكان القاهرة كما قال المؤرخون وقيل أن عشرة آلاف من سكان القاهرة قتلوا داخل بيوتهم بواسطة جنود الإنكشارية الأتراك .

تميزت استراتيجية سليم الأول في مصر باستخدام كثيف لأسلحة البارود من بنادق ومدافع وأيضا استخدامه بكثافة غير عادية لجنود المشاة حتي قال أحدهم أنهم مثل الجراد .

وفي محاولاتهم تطويق جبل المقطم، ذكر مؤرخ مصري عددا مهولا لعدد جنود الأتراك الذين تحركوا لحصار الجبل الأحمر .

فقال أنهم بلغوا مئتي ألف شخص وهذا رقم غير عادي إما أنه مبالغ أو أن سليم قد أصطحب معه جنود الشام الذين استسلموا له.

وحدث ذلك عدة مرات في العصر الأيوبي وتقدم جنود الشام في تحالف أيوبي أو تحالف أيوبي صليبي كما حدث في حرب غزة التي تحالف فيها المصريين مع قوات الخوارزميين وأوقعوا الجيش الشامي الصليبي هزيمة عظيمة.

تلك الكثافة البشرية غير العادية هي استراتيجية استخدمها التتار في حملاتهم علي البلاد الإسلامية حيث أن القوات الإسلامية كانت تبدو مثل قطره في بحر بالنسبة لهم.

مع ذلك تمكنت القوات المملوكية بقيادة السلطان سيف الدين قطز من إيقاع هزيمة منكرة بهم في معركة عين جالوت أنهت أمالهم في الشام وكان ذلك إنجازا مملوكيا تاريخيا غير مسبوق الى أن أدركوه بانتصاراتهم الكبرى علي الصليبين في الشام وطردهم نهائيا من سواحل . منذ قدومهم إلي بلاد الشام الذي كان يستهدف القدس في الظاهر وكان يستهدف احتلال كامل المنطقة العربية خاصة سواحلها المطللة علي البحر الأبيض.

استخدام الجنود بكثافة غير عادية هو أيضا إستراتيجية استخدمها إمبراطور ألمانيا علي الشام فقاتل صلاح الدين في عكا وعدة أماكن أخرى علي الساحل وصولا إلى غزة في أقصى الجنوب.

وقد تمكن الإمبراطور الألماني من استعادة الكثير من الأراضي التي كان صلاح الدين حررها في الشام فيما عادا القدس.

فأضطر صلاح الدين في النهاية إلي تغيير إستراتيجيته التي أتبعها منذ بداية ظهوره وتأسيس دولته وهي حروب تقليدية حسب شروط ذلك الزمان. تحت الضغط الألماني غيّر صلاح الدين إستراتيجية بعد أن فقد الكثير من الجنود بالقتال وبالمرض. فصعد الي قلعة جبلية حصينة تسمى (خروبة) فأصيب الألمان باليأس لأن الحرب لم تكون سريعة كما صمموا لها من بدايتها باستخدام طاقة عظمي وقوة كبيرة ضد المسلمين فمات إمبراطور ألمانيا ثم مات ولده كلاهما بأسباب مجهولة.

وعادت الحملة فاشلة إلي بلادها ولكن هناك من التقط الدرس وكان هو السلطان سليم هذه المرة في حملته علي مصر.

حيث أستغل الأعداد البشرية الكبيرة والتفوق التكنولوجي في السلاح .

والحرب النفسية ضد المدنيين وسلاح التجسس بمهارة فائقة وخونة متمرسين مثل خاير بك والغزالي والمئات غيرهم.

\*\*\*\*

## جيش طومان باي ومعاركه

ذكرنا أن طومان باي طور بسرعة استراتيجية الحرب التي كانت مختلفة تماما عما كان يعتقد السلطان السابق قانصوه الغوري .

فعاد إلي استخدام البارود وإستخدام المدافع المصاحبة للجيش وإستخدام البنادق النارية لتسليح جنود المشاة.

نظرا لضيق الوقت وقلة الأموال والإمكانات فإن ما تم كان قليلا وغير كاف ولكنه علي أي حال كان الاتجاه الصحيح لهزيمة الأتراك خاصة وان طومان باي بطريقته الثورية في التفكير وحيوته الفائقة في الحركة السريعة جدد في طبيعة جنود المشاة في الجيش المملوكي بشكل لم يتوقعه أحد ومخالف تماما للعقيدة المملوكية لبناء جيش من المماليك الذين يشترونهم من الأسواق ويدربونهم في مدارس عسكرية خاصة يقال أنه بلغت أثنا عشر مدرسة في مصر كانت تسمى الطباقي يشرف عليها خبراء

عسكريين وعلماء دين يعلمونهم اللغة العربية والفقه والفروسية وفنون الحرب وكانوا كلهم غير مصريين وأغلبهم من الجنس التركي القادمين من البلاد التي تعرضت للغزو المغولي.

بحكم تركيبة الأيوبيين ثم المماليك كأجناس غريبة عن مصر وغير ملمين بثقافتها وتاريخها فكانوا يحتقرون المصريين ويضطهدون بشدة ويتكبرون عليهم ومن سوء حظ الأيوبيين أنه عندما أحدث صلاح الدين إنقلاباً من داخل القصر الفاطمي في القاهرة بعد مائتي عام حكم فيها الفاطميون مصر، كانت أغلبها تعتبر من الأوقات السعيدة التي تمتع فيها المصريون بمقدار كبير من العدالة والمساواة والروح الدينية المتسامحة مع الاختلافات المذهبية والدينية.

وكان الحكم الفاطمي منصفاً للغاية ومجاملًا لنصاري مصر وغير معاد لليهود فأتاح لهم فرص الحياة العادية كأى مصري آخر والأهم كان الأنصاف والعدالة في معاملة الفلاحين الذين تعودوا على الإذلال والاضطهاد من الحكام الذين جاءوا بعد الفتح العربي.

فعرف الفلاحون في مصر معنى الأنصاف والعدالة والإحترام الإنساني ولم يطالبهم أحد لا بتغيير الدين ولا بتغيير المذهب وظل الشيعة الفاطميين في مصر أقلية إلى أن سقطت دولتهم.

الفئة الأخرى كانت مصريين من بلاد النوبة الذين ظل معظمهم على دين النصرانية والقليل منهم أسلم وكانوا من عنصر أفريقي فعاملهم العرب على أنهم مجرد عبيد وفي الحقيقة أنهم عاملوا الفلاحين المصريين أيضاً على أنهم عبيد يعملون في الأرض.

ولكن لأن النوبيين من أصول أفريقية فقد أسموهم بالسودان وأحياناً بالعبيد ويؤكد مؤرخو فترة حكم طومان باي أن المماليك أطلقوا على المصريين الذين التحقوا بجيش طومان باي يتدربون على البنادق والمدافع أسموهم العبيد وكان فيهم الفلاحين من الصعيد ووجه بحري وكان فيهم العرب الذين عاشوا في مصر منذ الفتح الإسلامي وبعضهم جاء من شمال أفريقيا مع الجيش الفاطمي أي أنهم من قبائل شمال أفريقيا من عرب وأمازيغ.

وهي القبائل التي فتحت الأندلس في أيام الدولة الأموية قبل أن تظهر بينهم الدعوة الفاطمية وقيموا لها دولة أصبحت إمبراطورية شملت بلاد الحجاز واليمن والشام ومصر.

وأصبحت منافساً قوياً للدولة العباسية من الناحية الإيدلوجية والمذهبية ولم نسمع من وقوع حروب بينهما رغم أن العباسيين كانوا على درجة من القوة في ذلك الوقت.

ساعد ذلك الفاطميين في استقرار دولتهم وتقبل شعوب البلاد التي فتحوها لهم. فلم تحدث انتفاضات عرقية أو مذهبية إلا نادراً وبفعل تدخل خارجي أما من الصليبيين الطامعين في مصر، أو من غلاة العباسيين الطائفين الذين يكرهون مصر بقدر ما يكرهون الفاطميين.

كان العرب المصريون جزءاً مهماً من القوات الجديدة التي شكلها طومان باي رغم التاريخ الدموي لفلاحي مصر والعرب والنوبة مع ممالك مصر خاصة في بداية دولتهم مع سلطانهم الأول أيبك التركماني الذي شن أبادات عرقية ضد الفلاحين والنوبة والعرب في الصعيد والدلتا.

تناسي المصريون ذلك ووقفوا صفاً واحداً مع طومان باي كما فعلوا مع الأيوبيين في معارك دمياط والمنصورة وكانوا هم العامل الأساسي في الانتصار وكان معهم أبطال المماليك من أمثال بيبرس وقطر

وقلاوون فخاض الجيش الشعبي المصري أول معاركه الكبرى إلى جانب الأيوبيين في معارك المنصورة ودمياط وقاتلوا ببسالة برا وبحرا.

وهو ما فعلوه مرة أخرى مع طومان باي كما سنرى. **ليس لأن التاريخ يعيد نفسه ولكن لأن الشعب المصري ظل هو نفسه** ومقاومته محتفظة بصفاتها الأساسية منذ ظهرت عملاقة في دمياط والمنصورة. نفس الفئات السكانية وغالبا نفس الأماكن التي شهدت مواقعهم التاريخية من غزة إلى أسوان إلى الإسكندرية سنرى تلك التجربة الفريدة للمقاومة التي ظهر لها قائد عبقرى ومثالا في الشهامة والفروسية والأقدام مثر طومان باي سلطان الشعب الذي خلدوه في الأغاني الشعبية والقصص والأساطير التي مازالت تروي.

وحتى طومان باي بطل المقاومة المصرية التي لم تجد اهتماما كافيا من الثقافة السائدة ولا الثقافة الإسلامية التي أهتمت باستمرارية الفساد والانحراف الذي مثلته الأنظمة الهرقلية شبه الإسلامية.

والتي أسمت نفسها إسلامية بداية من الأمويين الذين ابتدعوا الهرقلية الإسلامية وصولا إلى العثمانيين أصحاب النظام البيزنطي الإسلامي.

مرت المقاومة الشعبية في مصر بعد طومان باي بفترات صعود وهبوط إلى أن ظهر أحمد عرابي وثورته الشعبية/ العسكرية التي ضمت نفس الفئات من جنود وضباط الجيش المصري من أبناء الفلاحين مضافا إليهم فلاحي الحقول في الدلتا والصعيد والعرب من مختلف القبائل باستثناء القليل ممن احترقوا الخيانة لعهود طويلة حتي صارت وطنا قوميا لهم ورمزهم الآن شيخ العرب العرجاني في سيناء.

ومن قبله كان جزء من أعراب الطحاوية في صحراء مصر الشرقية الذين باعوا عرابي للجيش الإنجليزي كما باع الشيخ مرعي في محافظة البحيرة طومان باي للسلطان سليم.

وللحقيقة فإن سليم كان أكثر كرما مع الشيخ مرعي بما لايقارن مع البخل والخبث البريطاني مع مشايخ الطحاوية. وفي حين أن سليم منح مرعى إقليم البحيرة إقطاعا له مع زعامة عرب مصر.

الانجليزي منحوا شيوخ الطحاوية صندوقن كبيرين مليئين بالملاليم المصرية وكان الإتفاق أن تكون مملوءة ذهباً (الجنيه المصري يعادل ألف مليم).

العهد في الرواية التاريخية على عرب من الشرقية قاتلوا مع جيش عرابي في معركة التل الكبير، آخر معارك المقاومة العرابية ضد الإحتلال البريطاني.



## الفصل الثالث:

### معركة " الريدانية "

### الخيانة تهزم العبقرية والبطولة

نمر الآن علي أهم الوقائع التي دارت بين طومان باي والجيش الشعبي التي شكله علي عجل لمواجهة جيش الإمبراطورية العثمانية العائد من أوروبا لتأديب العالم الإسلامي وتكبيله حافظا علي أمن أوروبا . كما ذكرنا فإن غزة هي الشقيق الأول لمصر فما من كارثة حلت بمصر الا وطحنت غزة أولا وما من مصيبة أخرجتها مصر في اتجاه الشام الا ومرت بغزة في بدايتها.

في غزة قابل جيش طومان باي عنفوان الغزو التركي الزاحف علي مصر. وكانت غزة وقفت إلي جانب السلطان الأيوبي في مصر ضد الغزو الصليبي المتحد مع سلاطين الأيوبية في الشام وانتصرت غزة ومصر علي تلك الخيانة الكبرى. وفي هذه المرة تشهد مواجهة حاسمة ومفصلية .

هاجم الأتراك بقيادة "سنان باشا" نائب السلطان سليم الذي ذهب إلي القدس ليتمعن في مستقبله الزاهر كإمبراطور للعالم الإسلامي بعد أن يسيطر على باقي المساجد المقدسة في الحجاز ويسحق الشيعة الصفويين في إيران.

ليبقى هو وحيد الزمان موازنا لأوروبا وربما مناطحا لها في وقت ما . وهذا ما خشيت منه أوروبا فحركات اليهود لإحداث انقلاب عسكري أزاح السلطان العثماني وتولى الماسون الاتراك حكم الإمبراطورية العثمانية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك.

ثم قسموا تلك الإمبراطورية فيما بينهم وقسموا المنطقة العربية إلي دويلات كثيرة ضعيفة متهافنة لا تمتلك قرارها ولا حتي إمكانية البقاء المستقل بدون عون خارجي.

بينما السلطان سليم في القدس يحلم بمشروعه الإسلامي البيزنطي كان نائبه سنان غارقا في حرب مع طومان باي في غزة كاد أن يفقد حياته فيها.

يقول مؤرخون مصريون عاصروا ذلك الحدث: أن العثمانيون هاجموا غزة بأعداد كبيرة مثل الجراد يقودهم الوزير سنان نائب سليم وصديقه الحميم.

والتسليح الأساسي للمشاة الأتراك كان البنادق وتدعمهم المدافع الثقيلة تتحرك عجلات من خشب تسحبها الأبقار في مقدمة الجيش.

تمكن العثمانيون من تحطيم الجيش الصغير الذي حشده طومان باي في مقابلتهم. وبعد انتهاء المعركة انتقم العثمانيون من أهل غزة بسبب مساعدتهم للمصريين وقتلوا منهم ألف شخص من الرجال والنساء والأطفال.

ولم ينج من المماليك غير أعداد قليلة جدا عادوا إلي مصر في حال يرثي لها وبعضهم عاد راكبا الحمير وقد فقد سلاحه في المعركة .

وفي أجواء الهزيمة بدأت الأرض تهتز من تحت أرجل طومان باي في القاهرة وواجهته العديد من المشاكل دفعة واحدة...نذكر بعضها :

أن العسكر المهزومين في غزة وصلوا إلي القاهرة فبدأت الإشاعات تنتشر في القاهرة ويسود الاضطراب بين الناس خاصة وأنهم عثروا علي بعض العثمانيين في وسط القاهرة فجاءه بما يدل أن هناك خونة داخل القاهرة سمحوا لهم بالدخول .

وأدعى الأتراك أنهم جاءوا برسالة من السلطان سليم إلي طومان باي ولكنه قبض عليهم وأصدر أوامره بأن لا يأوي أحد أي غريب وإلا تعرض للشنق.

ويقال أن امرأة حاولت قتل طومان باي بخنجر ولا من تفاصيل حول ذلك الحادث غير ظنون بأنها من الجواسيس العثمانية.

يقول المؤرخون أن القاهرة كادت أن تخرب علي يد ممالك "الطباقي" طلاب المدارس العسكرية الذين غضبوا بسبب مقتل السلطان غوري فخرجو من المدارس وأحرقوا الأسواق التجارية .

ولكن طومان باي أسرع واحتجز ممالك الطباقي وطلب من أساتذتهم مراقبتهم والسيطرة عليهم .

ويقول المؤرخ المصري ابن إياس المعاصر لتلك الفترة (أنه لولا همة طومان باي لكانت القاهرة خربت عن آخرها ).

وزاد من مشاكل القاهرة ذلك الفرار المفاجئ الذي قام به أهالي بلبيس والشرقية الذين هربوا بشكل جماعي إلي القاهرة خوفاً من النهب والقتل الذي سوف يحدث علي يد العثمانيين.

يقول ابن إياس أن هجرتهم كانت من الكوارث وتسببت في قلة الأقوات وارتفعت الأسعار وقل الدقيق والخبز وتعطلت الطواحين.

والأمراء الذين قدموا من الشام شكلوا خطورة علي طومان باي وأظهروا ميلا إلي الاستيلاء علي السلطة .

فسجن طومان باي بعضهم خاصة الذين سلموا القلاع بلا حرب وهرب آخرون إلي الشام مرة أخرى وانضموا إلي العثمانيين.

والمماليك الصغار بعد مقتل الغوري لم يكن لديهم باعث لطاعة طومان باي وأرادوا أن يتولى الحكم محمد ابن السلطان الغوري الذي عاد من الشام .

بدأ السلطان سليم استخدام سلاح الإفتاء ضد عدوه طومان باي. فجعل في مقدمة جيشه الشرعي المواجه لطومان باي، الخليفة المتوكل علي الله العباسي، وكان سليم قد أسره في مرج دابق.

المتوكل بدأ يعمل في الدعاية لصالح سليم الأول ويدعو إلي اتباعه وأرسل سليم إلي طومان باي يخيره أن الخليفة العباسي والقضاة المصريون الذين أسروا في مرج دابق قد بايعوه .  
وقال سليم عن نفسه أنه مَلِكٌ إلي عشرين جد وأن طومان باي مملوك يباع ويشترى ولا تصح له ولاية .

## في معركة الريدانية

### الخيانة تهزم العبقرية والشجاعة

وكما ذكرنا فإن طومان باي لم يجد أي مال عنده في الخزائن وكان في حاجة إلي الإسراع بهمة لصنع البنادق والمدافع التي كانت السبب في نصر العثمانيين في مرج دابق وغزة.

\*\*\*\*

### المتولي (طومان باي) اكتشف الطاقة الخفية في مصر: الشعب . الموارد . والإيمان المصري

لأنه بعد مقتل الغوري كما يقول ابن إياس المؤرخ المصري زاد عزم طومان باي، علي بناء المكاحل وعمل البنادق، وكلفة ذلك جملة من المال وعرض بعضها أمامه وكان عددها مائة محملة علي عجل من خشب يسحب كل منها زوج أبقار كما عرض مئتي جمل محملة بالبارود والرصاص ومحملة بألف وخمسمائة طارقة.

والأهم من كل ذلك ما قاله المؤرخ ابن إياس عن أن طومان باي جمع ما لا يحصي من الرماة بالأسلحة النارية حيث كان بينهم من المصريين والسودانيين (النوبة المصريين) حيث كانوا دائمي التمرين حتي أن القاهرة كانت ترتج لقذائفهم.

وأمام إصرار أمراء المماليك علي عدم مقاتلة العثمانيين في الصحراء قرر طومان باي اختيار موقع مناسب لمواجهتهم قبل دخولهم إلي القاهرة فاختار موقع الريدانية (المطرية حاليا) بجوار القاهرة وخارج أسوارها، حتي لا يصاب سكان القاهرة بالأذى نتيجة المعركة التي يبدو أنها ستكون طاحنة وربما النهائية في المواجهة .

كانت الريدانية تقع خلف أسوار القاهرة من ناحية باب النصر وتمتد حتي جبل المقطم وكانت قد أصبحت منطقة خربة جرداء خالية من السكان.

فكانت المدافع المصنوعة حديثا تنقل من مسابكها إلي الريدانية وهي مغطاة بالجوخ. (وقد رتبها طومان باي ترتيبا جيدا يدل علي ذكاء وإدراك لقدرات سلاح المدفعية) .

فقد وضع المدافع الكبيرة التي كان يجرها ثلاثين أو أربعين من الخيل علي الجبل الأحمر وهو جزء من جبل المقطم.

وهذا يجعلها في موقع مسيطر ومتحكم في القوات العثمانية المنتشرة في الريدانية في مقابل الجيش المملوكي علي أرض منبسطة.

وهذا يجعل الأتراك هدفا سهلا للمدفعية المصرية الثقيلة التي لم تكن مألوفة للمصريين وبالتأكيد لم يتوقعها العثمانيون الذين كانوا مكشوفين لتلك المدافع الثقيلة المتمركزة فوق الجبل الأحمر.

وكان وجود الجيش المملوكي في مقابل الأتراك يتيح له الهجوم السريع عندما تضطرب صفوفهم وتقع فيهم خسائر من المدفعية فكان حصد الأتراك بالسيوف أمرا مضمونا لأنه المهارة الأساسية لدي الجيش المملوكي منذ الزمن القديم.

كما أن موقع العثمانيين في الريدانية كان يتيح حصارهم من الخلف في حالة قدوم أمدادات من القاهرة أو غيرها لنجدة جيش المصريين.

وهذا شيء مؤكد خاصة إذا بدأت المعركة بداية ناجحة لصالح المصريين فكان في القاهرة الكثير من المماليك وطلاب المدارس العسكرية "الطباقي" والأمرء المتمرسين وجميعهم جاهزون للتدخل إذا شعروا أن الكفة تميل للمصريين.

بهذه الحسابات بدت المعركة لطومان باي شبه مضمونة وان هزيمة الأتراك في الريدانية قريبة من يديه.

فوضع مدافعة الصغيرة (المكاحل) في مقدمة جيشة حيث أن الجيش العثماني هو الآخر كان في موقع واسع ظاهر وأن المدفعية الصغيرة بجانب الجيش المصري ستكون مساندة له وتضرب بشكل مباشر علي العثمانيين .

وكان عدد المدافع الصغيرة مائة في مقدمة جيش طومان باي علاوة علي المدافع الكبيرة فوق الجبل وعددها غير معروف.

وكان طومان باي قبل المعركة قد أمر بحرق مخازن الغلال الموجودة خارج القاهرة حتي لا تقع بأيدي العثمانيين.

\*\*\*\*

## الخائن الغزالي يهزم جيش طومان باي في الريدانية

خائن واحد يدعي "جان بردى الغزالي" تسبب بهزيمة جيش طومان باي في الريدانية . ذلك الخائن أمر بطمر المدافع التي فوق الجبل بالرمال مبالغة في إخفائها عن أعين العدو وكانت معمرة بالذخيرة والبارود.

يقول المؤرخ المصري ابن زنبيل : (ان الغزالي كان بينه وبين خاير بك إتفاق سري وأن طومان باي تنبه إلي خيائنه وأراد قتله لولا أن الأمرء من حوله منعه من ذلك لأن العثمانيين كانوا قد وصلوا بالفعل إلي الريدانية (يوم الخميس 29 ذي الحجة سنة 923 هـ / 22 يناير 1017) .



وتدفق العثمانية تحت الجبل الأحمر بإعداد هائلة (بلغت مائتي ألف أو أكثر بقصد الالتفاف من خلف المدافع المصرية. ولم تتح فرصة لهذه المدافع التي طمرها الغزالي في الرمال لمواجهة العثمانيين أي أنها خرجت من المعركة ولم تواجه العثمانيين. فلم يخرج منها إلا طلقة واحدة أرعبت العثمانيين الذين لم يلبثوا أن أدركوا الورطة التي وقعت فيها المدافع المصرية. حينئذ قام طومان باي بعمل لا يقوم به إلا قائد ذو أعصاب فولاذية وشجاعة ليس لها حدود .

فهاجم ومعه شجعان فرسان المماليك معسكر سليم ، الذي أقيم في أول الريدانية، فوقعت موقعة مهولة، أعظم من الواقعة التي كانت في مرج دابق، إذ اقتحم طومان باي المعسكر العثماني بشجاعة نادرة، المؤرخ ابن زنبيل يقول عن نتائج ذلك الهجوم: (فقتل عدد لا يحصى من أمراء العثمانية وعسكرها، ومعظم الموجودين في خيمة سليم نفسها، بما فيهم سنان باشا الخادم، الصدر الأعظم، الذي بارزه طومان باي وقتله بيده، ظنا منه أنه هو السلطان سليم، ولكن سليم لم يكن موجودا وقتذاك).

كانت تلك وسيلة القتال التي يفضلها المماليك. أي طريقة الفرسان رجل لرجل وليس بالبنادق. يقال أن سليم حزن بشدة علي فقدان وزيره سنان واعتبرها خسارة لا يمكن أن تعادلها دولة (يقصد ان مصر لا تساوي مقتل سنان).

يقول المؤرخون أن العثمانيون في تلك المعركة تمكنوا من قتل عشرة آلاف من أمراء المماليك. (أي أن مدفعيتهم عادت إلى العمل بعد هجوم المتولي على معسكر القيادة العثمانية وقتله سنان باشا.

ويبقى طومان باي مع عدد قليل من رماة البنادق المصريين. دافعوا ببنادقهم عن طومان باي فلما تكاثرت عليهم العسكر العثمانية انسحب طومان باي إلي طُرة وهي قرية من ضواحي الفسطاط.

كان خير بيك هو أول من أبلغ السلطان سليم بانتصار العثمانيين في معركة الريدانية، وبعد مقتل الوزير سنان أصبح خير بك أقرب أعوان سليم وهو الذي دخل إلي قلعة الجبل وأخذها بدون مقاومة، إذ كانت خالية.

السلطان سليم أخذ مفاتيح القلعة ولم يدخلها. ولكن العساكر العثمانية تعقبوا المماليك في كل مكان في القاهرة حتي في البيوت والمقابر فمن أمسكوه كانوا يقتلوه فوراً وساعدهم في ذلك عدد من العربان. والكثير من المماليك لبسوا ملابس الفلاحيين وملابس حرافيش القاهرة الفقراء والصعاليك للتخفي.

\*\*\*\*

## الإنكشارية في القاهرة

وقتل الجنود العثمانيين الأهالي بوحشية بالغة ونهبوا القاهرة بحجة البحث عن المماليك ولم يتركوا خيلا ولا بغالا ولا أقمشة ولا شيء قليل أو كثير الا نهبوه.

استمر النهب ثلاثة أيام متوالية ثم توقف، وأمر السلطان سليم الانكشارية وهم عسكره الخاص بالخروج من القاهرة والوقوف علي أبوابها.

الخليفة العباسي وقضاة مصر الذين عادوا مع سليم من الشام نادوا في الناس بالأمن والعودة إلي البيع والشراء ودخل سليم إلي القاهرة منتصرا في (يوم الاثنين 3 محرم سنة 923هـ / 14 أبريل 1017 م) في موكب ضخم وفرشت له علي الأرض أقمشة الحرير تحت حوافر فرسة، وكان قدامه الخليفة والقضاة.

وقد أحاطت به العسكر من المشاة والفرسان وازدحمت بهم الشوارع، وقد حملوا الرايات الحمراء شعار الدولة العثمانية وأوقدت الشموع الكبيرة علي الدكاكين وأطلق البخور وماء الورد وخطب علي المنبر في القاهرة يوم الجمعة باسم السلطان سليم شاه، بدلا من الخطبة لطومان باي ، ووصفه الخطيب بأنه مالك مكة والمدينة، فأمر سليم أن يطلقوا عليه لقب خادم الحرمين الشريفين، (وهو اللقب التي ورثه حكام آل سعود كقوة احتلال لبلاد الحجاز) .

## الفصل الرابع:

أربعة أيام مجيدة في حرب حواري القاهرة

( اللهم انصر من غلبَ )!!

دعوات مشايخ القاهرة: أسبوع لسليم وأسبوع لطومان باي

### طومان باي: بطل حرب شوارع القاهرة

بعد معركة الريدانية فقد طومان باي ما كان أحرزه من تفوق بحيازة المدافع.

وظل لديه بعض البنادق ولكن المدافع جميعا ضاعت في معركة الريدانية كذلك الذخائر من البارود التي كان قد أجهت وصرف الأموال والوقت في تجهيزها.

قرر طومان باي أن يستمر في مقاومته رغم الهزيمة وفقدان الأسلحة النارية معتمدا علي السيف ومواجهة الخصم وجها لوجه في قتال مباشر قريب.

من حول طومان باي تجمع المصريون (العبيد) حسب المؤرخين فكانوا يتبعونه ويثقون فيه، ولم يتخلوا عنه. تكرر المشهد بعد مئات السنين عام 1882 في ثورة عرابي الذي اتبعه الفلاحون والبدو جيشه حتي الموقعة النهائية ضد الجيش البريطاني في التل الكبير بالشرقية.

تبقى مع طومان القليل من المماليك التابعين له، ولكن أكثر المماليك تركوا المعركة واختفوا أو انضموا إلي سليم.

لم يترك طومان باي فرصة لسليم أن يستريح، فبعد مرور حوالي خمس أيام علي معركة الريدانية، قام طومان باي بهجوم مباغت وجري أذهل العثمانيين، وحتى أو شك جيشهم علي الهزيمة وأعتقد سليم

أنه سوف يقع في الأسر، كانت تلك أول حرب شعبية من العيار الثقيل تشهدها حواري القاهرة ، مع سلطانها طومان باي الذي أحبه ووثقوا في شجاعته، وتحذوا في شوارع القاهرة وأزقتها واحد من أقوى جيوش العالم في ذلك الوقت وكانت أوروبا تخشاه وحقق الكثير من الانتصارات.

في ليلة الأربعاء (الخامس من محرم 28 يناير 1017) بدأت العملية الصاعقة التي شنها طومان باي ورجاله علي العثمانيين في القاهرة، اذ تسرب رجاله إلي حواري القاهرة ليلا حتي وصلوا إلي معسكر سليم، وأطلق في المعسكر جمالا محملة بمادة مشتعلة، مما جعل معسكر سليم يشتعل بالنيران، وأعتقد السلطان سليم أنه سوف يقع في الأسر وأن جيشة هزم وسوف يفر في حواري القاهرة المليئة بالفقراء الثارين يقول المؤرخ المصري: وما لبث العامة من أحياء القاهرة لا سيما من حي بولاق أن انضموا إلي طومان باي، فكانوا يرحمون العسكر العثماني بالمقاليح وفيها أحجار ، وبعض رماه البندق من المصريين اشتركوا في القتال، وكان المماليك يسمون هذه الجماعات من أهل مصر (بالعبيد). (المماليك يقولون عن اهل البلد العبيد!!).

واستمرت المعارك في القاهرة التي تحمل العبء الأكبر فيها فقراء المدينة (الحرافيش) ومعهم عدد من المماليك، استمروا يقاومون بعنف أربعة أيام بالياليتها إلي يوم السبت، وكانت كفة المصريين هي الراححة علي العثمانيين، وأصبحوا يهاجمون تجمعاتهم. كان انتصارا واضحا ومدويا في مصر كلها، لدرجة أنه في يوم الجمعة التالية له ، خطب في مساجد القاهرة لطومان باي ، وكانوا قد خطبوا الجمعة السابقة لسليم الأول.

لقد ألهم وجود البطل المتولي طومان باي جنوده ليكونوا جميعا أبطالاً على شاكلته ؟؟. فالحرافيش "الأراذل" ولمدة أربعة أيام ولياليتها أذلوا وحوش الإنكشارية الأتراك. حتى أن خطباء الجمعة تراجعوا عن دعواتهم للمستعمر سليم.

فعاد ( أولاد حارتنا) من "أراذل وسابلة" إلى حقيقتهم التي كانوا عليها في حروب دمياط والمنصورة، تماسيح مصرية تفترس جيوش الصليبية الفرنسية في مياه النيل المحملة بالطمي والبطولة.

أربعة أيام نادرة في التاريخ المسرى تكرر شبيها لها في ثورتين لحواري القاهرة ضد جيوش نابليون ومدافعا. حيث تحول الحرافيش إلى فرسان حقيقيين في ميدان بؤسهم وبطولاتهم "أزقة القاهرة". إنها معجزة القائد الشعبي الحقيقي وإن كان بمرتبة سلطان مصر ، فاستطاع تحويل ميادين البؤس والذل في حواري القاهرة إلى ميادين بطولة وجسارة أذلت أخطر وحوش عصرها. وأصبح الفقراء و"العبيد" المصريين أصحاب البلد أبطال ليس لهم نظير، ولا يمكن أن تقهرهم جيوش الانكشارية.

ولكن الخيانة تمكنت من هزيمة ابطال حواري مصر وبطل السلاطين وسلطان قلوب المصريين، طومان باي. اثنان فقط من الخونة كانا أهم من كل جيوش سليم وهما خاير بيك ..والغزالي بردي.

شعر العثمانيون أن ذلك نوع من الحروب لا يناسبهم وفي حال استمر عليه طومان باي فسوف يكسر ظهورهم في قتال متلاحم داخل الشوارع الضيقة والحارات يخوضه الفقراء المتحمسون المحبون لقائدهم السلطان (ابن البلد) صاحب السيف المقوس الذى يتطاير الشرر من ضرباته.

قرر سليم العودة إلي أسلوب القتال بالبارود والمدافع وهو المجال الذي يتفوق فيه. تاركا المجال الذي يتفوق فيه خصمه وهو الحروب المباشرة بالسلاح الأبيض، فطلعت قوات الإنكشارية من حملة البنادق إلي المآذن وصاروا يرمون بالرصاص في كل اتجاه مما أجبر الأهالي والمماليك علي وقف المقاومة. وقد

أصابهم التعب من القتال ليلا نهارا بدون راحة، فأنسحب الناس من القتال بما فيهم المماليك، ولم يتبق في الميدان سوى طومان باي وحوله بعض رماة البنادق من المصريين وبعض مماليكه الخاصة، فقرر الانسحاب إلي خارج القاهرة.

\*\*\*\*

## الانتقام العثماني من القاهرة

بذهاب طومان باي تحول العثمانيون إلى الانتقام من المصريين بحرق بيوتهم وقتلهم فقتلوا منهم عشرات الآلاف (حتى كاد يفني أهل القاهرة). وكذلك قتل العثمانيون كل من وقع بأيديهم من المماليك الذين اختفوا في بيوتهم أو أماكن أخرى وبلغ عددهم ثمانمئة شخص.

بعد معركة الشوارع في القاهرة ، استتبت الأمور للعثمانيين في القاهرة وطلع السلطان سليم لقلعة الجبل لأول مرة في موكب ضخم، أرتجت له القاهرة وذلك في يوم (الثلاثاء 11 محرم 2 فبراير).

## الفصل الخامس . الأخير .

### بواية سيدي المتولي

طومان باي.. مشنوقا على باب زويلة

- في الصعيد (بهنسا) آخر البطولات

- في الغربية خيانة الشيخ مرعي

- وفي القاهرة مشنقة باب زويلة

\*\*\*\*

## طومان باي في الصعيد (بهنسا)

لجأ طومان باي إلي مدينة البهنسا، غرب النيل في صعيد مصر. فأقام فيها مستخدما النيل كخط دفاعي، وكان ينتظر فرصة مناسبة كي يعاود الهجوم مرة أخرى علي العثمانيين (في القاهرة).

فتوافدت إليه مجاميع من المماليك وأهالي مصر من الصعيد (موطن المقاومة الشعبية المصرية ضد المماليك في عهد أيلك وقلاوون).

بلغ الحشد حول طومان باي أكثر من عشرين ألف وكان من الأمراء الذين قدموا إلي طومان باي مشهورين بالفروسية والشجاعة، ومنهم الأمير شريك (شادبك) الشهير بالأعور، وحسب قول ابن إياس فهو لم



يكن أعور ولا حتى أحول. ولكنه اذا نظر جانبا غلب البياض على لون عينيه، فاطلقوا عليه لقب الأعور. ولكن قوته البدنيه كانت غير عادية ولكن محبيه المصريين نسبوا تلك القوة إلى طومان باي "المتولي" فكما حصرهم شيء أو خطر يحتاج الى قوة كبيرة لدفعه تذكره قائلين (يامتولي) ومازال ذلك موجودا حتى الآن على الرغم من محاكم التفتيش الوهابية المتطرفة قبل أن تنقشع مؤخرا على أيدي مؤسسيها ويستبدلونها بمحافل الترفيه المتطرف.

السلطان سليم شكّل قوة من المماليك الخونة الذين انضموا إليه. وتجنب أن يحاربه بنفسه، فقرر أن يرسل حملات إلي الصعيد فأرسل حملة علي رأسها الأمير "جاثم السيفي"، وهو من خونة خاير بك، وكان سابقا يعمل في جباية الضرائب في الفيوم وأصطحب معه الكثير من رماة البنادق، ويقول ابن إياس أنه أصطحب معه مشاة من رماة البنادق عشرين ألفا، تحركوا بالمراكب، فلما التقى بطومان باي طلب مبارزته.

فتمكن السلطان المتولي من جرحه وعلي الفور أطبق طومان باي وأتباعه على الجنود العثمانيين الذين كانوا في المراكب وسحقوهم، وغنموا مالداهم من آلات الحرب وبصعوبة تمكن جاثم السيفي من الهرب.

تجلت عبقرية طومان باي في تكتيكه المبتكر في تلك المعركة، أولا تخلص من قائد الحملة بالطريقة التي تناسبه وهي المبارزة المباشرة التي لا يمكن أن يجاريه فيها السيفي أو غيره، وعندما سقط السيفي هاجم طومان باي وجنوده علي المراكب قبل أن يهبط منها الجنود ويصطفوا ويطلقوا النار علي رجال طومان باي، ولو حدث ذلك لأبادوهم نتيجة العدد الكبير من البنادق التي لديهم (عشرين ألف). رجال الصعيد مشهورون بالقدرة علي القتال في النيل ضد المراكب واستخدموا تلك المهارات في معارك دمياط والمنصورة ضد الفرنسيين، وقد استخدموا تلك المهارة في مهاجمة قوارب الإنجليز في النيل في ثورة 1919 وحطموهم كما فعلوا مع الجنود العثمانية .

أرسل السلطان سليم المدعو جان بردى الغزالي أخو زوجة طومان باي كي يقاتله بنفسه، وكان الغزالي من الخونة التابعين لخاير بيك، ومن أسباب هزيمة الغوري وطومان باي في معاركهما ضد العثمانيين. يقول المؤرخ ابن إياس أن دافعة كان الطموح إلي الزعامة، وقد طلب الأمان من السلطان سليم بعد فراغ طومان باي من حرب الشوارع في القاهرة .

وقدم نفسه إلي سليم بطريقة عجيبة، فقد ظهر ومعه أربعمائه مملوك وقد قطع أعناقهم جميعاً لتأكيد إخلاصه للسلطان، فأرسله سليم مع يونس باشا وقوة من خمسمائة جندي من رماة البنادق لقتال طومان باي في الصعيد.

كان الغزالي في أثناء الطريق يمارس أشد أنواع الإرهاب ضد الأهالي وخاصة العرب، ويحرق بيوتهم ويسبي الحريم والأولاد ويبيعهم كما يبيع الرقيق (ظلت هذه السياسة متبعة في الجيوش الإسلامية في الحرب ضد المسلمين المخالفين للسلطان منذ أقرها الخليفة يزيد بن معاوية وظلت متبّعه إلي أن وصلت بحذافيرها الي الغزالي في حملته تلك ومن قبلها السلطان أيبك، والسلطان قلاوون في نفس المناطق وحملات الخوارزمية في الشام ومناطق الأكراد في العراق وفي بغداد.

فهي ليست اختراعاً رآه الشام لأول مرة في الحرب بين زعران الشام والنظام الحاكم وأدعوا أن حزب الله قتل فيها الكثير من أهل السنة، ولكنهم لم يذكروا أنهم تعرضوا للبيع كرقيق، أو ان حريمهم تعرضن

للسبي مرات عديدة على الطريقة السنية. وصَحْن مسجد حلب شهد ما يندى له الجبين من تجاوزات الخوارزميين مع "السبايا" المسلمات.

عندما التقى جيش الغزالي مع جيش طومان باي، تمكن الغزالي من قتل عشرة من جنود طومان باي، وطلب مبارزة المتولي شخصيا، فخرج له طومان باي وقنطره من فوق فرسه، ووضع السيف علي رقبتة، وكاد أن يقتله لولا أنه استرحمه بحكم القرابة، وحلف أنه لن يحاربه أبداً .

حاول السلطان سليم خداع طومان باي وإغرائه بالصلح في مقابل تعيينه مندوبا عن الخليفة (الخليفة العباسي الذي أصبح أسيرا لدي العثمانيين بعد أن كان أسيرا عند المماليك) فيصبح طومان باي حاكما علي مصر مدي الحياة في مقابل أن تكون لسليم الخطبة والسكة والخراج ، وارسل عرضا مماثلا إلي الأمير شريك الأعور ، وقال له أنه لا حاجة له في مصر وأنه مستعد أن يرحل عنها ، وأعطاه الأمان.

كانت قوة طومان باي قد تزايدت وتكاثر من أتاه من العسكر ومدد ومؤن وصلته من الإسكندرية خاصة، (ربما جاءت من المغرب . فالحوادث الأخيرة في حياة طومان باي أعطت انطبعا أنه كان يريد اللجوء إلي المغرب العربي بعد أن اشتدت المطاردة عليه وخانه الكثير من العرب والبدو).

بعد مشاورته مع الأمراء بشأن عرض الصلح الذي وصله من سليم.

رفضوا جميعا الصلح مع سليم، وقتلوا الرسل بما فيهم القضاة المصريين الذين كانوا ضمن الوفد.

قرر سليم في النهاية أن يخوض الحرب بنفسه ضد طومان باي وأن يستخدم أقصى قوة متوفرة لديه ليقضي عليه نهائياً وبدأ بقتل جميع أمراء المماليك الذين كان يحبسهم في القلعة. وكانوا أكثر من أربعين أميراً ويظهر أنه كان غير واثق من النصر في معركته القادمة وخشي أن يهرب هؤلاء الأمراء أو أن يحررهم طومان باي ويزداد بهم قوة.

استفاد سليم من أخطاء الحملة البحرية الفاشلة التي قادها (السيفي) وانتهت بإبادة الحملة علي يد الصعايدة من عساكر طومان باي.

فبدأ سليم بوضع مدفعيته علي الشاطئ الشرقي للنيل في مقابل بهنسا وتجمعات طومان باي، وبذلك كانت آمنة من أي هجوم مفاجئ من تلك التي أشتهر بها طومان باي. الذي لم يكن يمتلك أي مدافع للرد عليه.

تحت هذا الغطاء المدفعي تمكنت قوات سليم من عبور النيل والنزول في الشاطئ الغربي في طرف قوات طومان باي وقد حملوا البنادق والأعلام التي دخل بها سليم إلي القاهرة .

قتل في هذه المعركة معظم الرجال والأمراء والجند الذين كانوا مع طومان باي، وتعرض للخيانة والغدر من قبيلة عزالة، وكانوا قد وعدوا بمساعدته، ولكنهم جروا خلفه بعد هزيمته محاولين الإمساك به لتسليمه فقاتلهم وتغلب عليهم بالقرب من الجيزة ، ولم يكن معه الا القليل من الرجال.

\*\*\*\*

## سيدي المتولي يلقي قصيدة عند الأهرامات

يذكر المؤرخ المصري ابن زمبل: أن طومان باي عند الأهرامات في الجيزة ، ألقى قصيدة طويلة من الشعر العربي مكونة من مئة بيت كتبها له الأمير شريك (عملاق الشعر والفتوة) بيتا بيتا ثم علقها عند الأهرامات تضمنت القصيدة ذكر المصائب التي حلت به وبدولته وأنه يتحمل المسؤولية ويقبل قدره، وأنه فعل كل ذلك من أجل مكانة مصر التي شهدت مولد الزمان ومولد الحضارة .

بعد معركة الجيزة انسحب طومان باي إلى منطقة سخا حيث كان يسكنها عرب من قبيلة عزالة، وهي نفس القبيلة التي كانت تطارده، فترك المكان مسرعاً، وكان عرب عزالة قد انضموا الي سليم في قتال طومان باي، الذي أتجه إلي البحيرة، التي كانت تربطه علاقة ودية سابقة مع العرب هناك من قبيلة محارب، الذين كانوا يسمون أولاد مرعي، وكان طومان باي قد أطلق شيخ القبيلة حسن مرعي من سجن القلعة في وقت السلطان الغوري. حسن مرعي وأخاه شكر قاما بخداع طومان باي وأحسن استقباله والترحيب به، ولكن طومان باي رفض قبول دعوة بالمبيت في بيت مرعي وفضل المبيت مع رجاله في أحد الاودية المجاورة لقرية تروجة من إقليم البحيرة من ناحية الإسكندرية .

ويبدو أن المتولي لم يكن مطمئناً بشكل كامل للشيخ مرعي خاصة وأن باقي القبيلة ظلت تطارده من بهنسا في الصعيد حتي تروجة .

واصل المتولي مسيرته باتجاه الإسكندرية (حتى ظن البعض أن هناك ما كان يجذبه صوب بلاد المغرب العربي ليتخذها ملاذاً. فمنها جاءت العدالة ذات يوم إلى شعب مصر المنهك . (1)

ولكن واصلت قبيلة عزالة متابعته مثل الذئب الجائعة التي تطارد الفريسة.

فوقع حادث ذو دلالة فلسفية ظلت راسخة في العقل الباطن للمصريين حتي عبر عنها كاتب مصري في أحد قصصه الشهيرة (نجيب محفوظ في قصة اللص والكلاب) .

ذلك أن عدد كبير من الكلاب البرية هاجموا سيدي المتولي وأحاطوا به، فأخرج سيفه يدافعهم به.

هذا السيف في قبضته الفولاذية لم يسبق له أن سقط في أشد المعارك ولكن هذه المرة طار من يده فتشأم كما يقول بذلك المؤرخ ابن إياس.

وما لبث أن وصلت العساكر العثمانية الي منطقة حسن مرعي وحاصرته فأدرك المتولي أنه مأخوذ لا محالة فلم يقاوم ولكن الهرقل "شريك الأعور" تمكن من الفرار بفرسه وهرب نحو الصحراء الشرقية قاصداً شيخ عرب آخر كان صديقا له، ويدعي (أحمد بقر) الذي خانته أيضا وسلمه الي العثمانيين.

\*\*\*

شعب مصر المنهك (1): على لسانهم قال شاعر مصري معاصر من بلاد النوبة الشهيدة (أيها السائق وفقا بالجياد المجهدة .. فقد أكل حديد السرج منها لحم الرقبة).

\*\*\*\*

## بامر السلطان سليم: مصر إقطاع للخائن مدى الحياة !!

من دلالات تجربة طومان باي أن مصر لا يمكن هزيمتها الا بالخيانة، فمصر قادرة علي هزيمة أي جيش مهما كان عدده أو تسليحه. لأجل هذا فإن سليم لم يتول حكم مصر بل أعطى حكمها (لكبير الخونة) خاير بك كقطاع له مدى حياته .

وبعد ذلك قرر العثمانيون ان يكون الحاكم لمصر عثمانياً وأن يتولى الأمراء المماليك الخونة الإدارات المحلية والتعامل مع أهلها بالقسوة والظلم المملوكي المتوارث.

عاد جان بردى الغزالي إلي الخيانة مرة أخرى ، فأرسله السلطان سليم إلي عرب أولاد مرعي، ومعه وعد للشيخ حسن مرعي إذا سلمه طومان باي بأن يجعله زعيماً علي جميع مشايخ العربان في مصر، وأن يعطيه الأرض الذي يسكن عليها أقطاع له ويعفيه من الضرائب.

حسن مرعي استجاب لطلب سليم ، وجاءه الغزالي مع خيول العثمانيين لاستلام طومان باي منه، فقاومهم الأمراء الذين حوله ولكن بدون جدوي، الوحيد الذي استطاع الإفلات والهرب هو الأمير شريك الأعور ، يقال أن طومان باي وقد تأكد من أنه مأخوذ لم يقاوم عندما أحاطت به العسكر العثمانية ، الذين جعلوه يضع يده اليمنى فوق اليسرى وربطوهما بحبل، وأوثقوهما وأركبوه علي بغلة ، وقيدوه من تحت بطنها.

في القاهرة: قرعت الطبول، وبالأمر زين الناس جميع البيوت والدكاكين وهم لا يعلمون السبب في ذلك الإحتفال، وعند ما سمعوا بالخبر، لم يكونوا يصدقون أن طومان باي تم إمساكه بالفعل.

\*\*\*\*\*

## سليم الدميم

المؤرخون المصريون كانوا يكرهون السلطان سليم كما هو واضح في حديثهم عنه وعن جيشة، وقال أحدهم أن منظر سليم القبيح قد أخاف سكان القاهرة وجاء في وصف المؤرخ ابن إياس ان سليم كان له من العمر نحو أربعين سنة أو دون ذلك وأنه مربع القامة، واسع الصدر ، ملئ الجسد ، كبير الرأس ، دري اللون(لامع)، له وجه كالح ، وجبهة ضيقة ، وواسع العينين ، وأنفه كبير وافر(ضخم) ، وله لحية سوداء حلقت حتي الذقن ، شنبه بارز ، وله عنق قصير (أقنص العنق) ومكرفس(مقوس) الأكتاف ، وعلي رأسه عمامة صغيرة، وقد وجد فيه المصريون خفة ظاهرة ، (غير وقور) إذ كان كثير الالتفات أثناء ركوبه(شأن كل قاتل يخشى من الثأر).

\*\*\*\*\*

## سليم في مواجهة طومان باي

### الذميم ، أمام شجاعة الفروسية وكمال الخلق

تجهز سليم لاستقبال طومان باي وقد أحاط نفسه بكبراء الأعوان والخونة وعلي رأسهم خاير بك والغزالي وحسن مرعى والوزير يونس باشا ورتبوا العساكر العثمانية حسب درجاتهم وبنادقهم في أيديهم. يقول المؤرخون أن طومان باي ألقى سلام الملوك علي سليم، فرد عليه سليم كما يجب، ولم ينتقص مكانه في سلامه.

يقول المؤرخ المصري ابن زنبيل أن سليم نظر إلي طومان باي فوجد فيه كل شيء يشهد بالشجاعة والفروسية وكمال.

ودار حوار طويل بين سليم وطومان باي الذي كان متماسكا وقويا، فلم يتخاذل أو يطلب الرحمة من سليم الذي تباهى بأنه سلطان بن سلطان بينما طومان باي من المماليك الذين لا يعرفون آباءهم.

تكلم طومان باي بصفته حاكما لمصر وكان قويا في الرد علي تعريضات سليم، فجاء من ضمن كلامه: (إن دولتكم هي التي أقبلت ودولتي أدبرت ، وهذا شيء كتبه الله تعالى، وإني ما أخذت السلطنة برغبة مني وإنما "قومي" وعسكري اختاروني ورغبوا في أن أكون السلطان عليهم ) نلاحظ هنا أنه تكلم عن المصريين بصيغة قومي وكان يعتبر نفسه مصريا).

ذلك لما علموا من زهدي في الحكم، فلما تقلدت عليهم ، وجب علي أن أرد عنهم (نلاحظ أنه يري أن من واجب الحاكم أن يحارب ويدافع عن بلاده وشعبه) ثم أشار إلي أنه مثل سليم قد تربت نفسه في العز ولا تقبل الذل وقال: وهل لو أرسلت لك أنا وأمرتك أن تكون تحت أمرتي هل كنت ترضي بذلك، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب.

فلا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا، ولكن أنت كنت تستحل قتل المسلمين وترمي عليهم بهذه المدافع والنيران، فكيف بك إذا وقفت بين يدي رب العالمين، وما من ملك وإن تعاضم ملكه، الا هو لله عبد أصغر، فما أنا وأنت إلا بجملة العبيد (ذلك أن سليم كان يعايره بأن المماليك عبيد لا يعرفون آباءهم وأن سليم سلطان ابن سلطان واجب الطاعة.

\*\*\*\*

### طومان باي.. على باب زويلة

سليم أبقى طومان باي في الحبس مدة 17 يوما ربما لتحطيم أعصابه والتشفي منه. ولما سمع سليم أن الناس في مصر لا تصدق أن طومان باي أمسك به العثمانيون، قرر قتلة تحت إلحاح الخونة من أمثال خاير بك والغزالي.

سليم الذميم قبل تنفيذ حكم الإعدام أبقى سيدي المتولي 17 يوما في السجن، قدم المؤرخ ابن اياس تفسيراً وحيدا وهو أن الذميم أراد تحطيم نفسية المتولي خلال فترة الانتظار الطويلة لعملية الشنق.



لا نستطيع أن نفهم اللغز الثالث وهو الإعدام علي ثلاث مراحل إذ انقطع الحبل مرتين وفي المرة الثالثة لم ينقطع فتمت عملية الشنق.

يقول شهود عيان عن يوم قتل طومان باي وعملية شنقة ما يلي (فقد أتوا له ببغلة ، وأخرجوه عليها ، وأنزلوه علي مركب ، وعبروا به إلي بولاق.

أراد سليم أن يقهر أهالي بولاق الذين كانوا من أشد أعوان طومان باي في معارك شوارع القاهرة التي كادت أن تحطم قوة العثمانيين ووصلوا إلي معسكر سليم نفسه حتي كاد أن يقع في الأسر.

فلما وصلوا بالسلطان الي باب زويله أشهر أبواب القاهرة ، وجدوا حبل الشنق معداً فأسرعوا به إلي طومان باي الذي تقدم إلي الحبل بنفسه ثابتاً ، وقد أحاط به الجنود العثمانيون والسيوف في أيديهم ، فطلب طومان باي من الناس قراءة الفاتحة له ثلاث مرات فقرأ الناس معه ، ثم قال للمشاعلي (الجلاد): **إعمل شغلك** ، فكان الحبل يقطع به مرتين وفي كل مرة يعلقوه من جديد.

وكما علمنا من تفاصيل الحادث فإن طومان باي طلب من محبيه الذين أحاطوا به لتوديعه الوداع الأخير. طلب منهم أن يقرأوا معه الفاتحة ثلاث مرات علي روحه .

فلماذا ثلاث مرات ؟ وكيف كانت محاولات الشنق الثلاثة ؟

وهل كان طومان باي يعرف تدبير سليم تكرر عملية الشنق لتعذية وإهانته وتحطيم معنويات محبيه الذين احتشدوا حوله؟؟.

ففي كل مرة كان يسقط طومان باي من ارتفاع كبير إلى الأرض علي مافي ذلك من إهانة وتعذيب له. ولنا أن نتصور حال المحبين الذين يصرخون في كل مرة ويبكون فقد جرحت كرامتهم وتشفي بهم الأعداء.

وفي المرة الثالثة شنقوه إلي أن مات ( يقال أنهم ابقوه مشنوقا على باب زويلة ثلاثة أيام) ، ثم وضعوه في تابوت ، وغسله القاضي وكفنه من ثياب أرسلها سليم ثم صلي عليه القاضي ودفن في فسقية قبة السلطان الغوري.

## هل كان سيدي "المتولي" يعلم بمحاولات الشنق الثلاثة؟؟

تسريب خبر جريمة الشنق إلى طومان باي في سجنه ممكن في تلك الظروف فالكثير من الناس الذين يحبونه ويعملون بالقرب من سليم ممكن أن يسربوا خبر مؤامرة سليم بتكرار عملية الشنق. فالأرجح أن طومان باي كان يعلم بأمر تمثيلية الحبل الذي سوف ينقطع مرتين ويعمل في المرة الثالثة .

ومن أجل هذا طلب من الناس أن يقرأوا معه الفاتحة ثلاث مرات ولا شك أن الكثير من الفقراء حوله اعتبروا ذلك كرامة له .

وعملاً ينفرد به ويميزه بين السابقين واللاحقين. فالمئات وربما الآلاف قد تم شنقهم علي باب زويلة ولم يكن لأحدهم قصة خاصة عند الشنق أو الصلب سوي سيدي المتولي فقط .

ومن يومها تحول باب زويلة إلي (باب المتولي) وتحول إسم طومان باي إلي سيدي المتولي صاحب الكرامات.

و باب المتولي هو في الواقع المقام الذي يحفظ ذكرى طومان باي .

أما قبره فقد خبأه سليم الذميم في فسقية قبة الغوري

فكان شنقه ( يوم الأحد 21 من شهر ربيع الأول سنة 922 هـ / 10 سبتمبر 1017 م . )

\*\*\*\*

## القاهرة ومقتل طومان باي

يقول المؤرخ ابن زنبيل: كان قتل طومان باي له رَجَه هائلة ، وكأن الدنيا قد إنقلبت بسبب موته ، واعتبر يوم شنقه أشأم الأيام ، وارتفع الناس بالضجيج والبكاء والصياح في كل مكان ، ويقول ابن إياس: صرخت عليه الناس صرخة عظيمة، وكثر عليه الحزن والأسف. فكان المصريون من غيظهم يقولون الزجل ، وكثرت المراثيات عليه ، ومعظمها من قرص الزجالين والشعراء المصريين.

بسبب شنق طومان باي علي باب زويلة ، فأن هذا الباب عرف بباب المتولي أو بوابة المتولي ، بسبب أن المتولي كان لقب طومان باي قبل السلطنة ، إذ أن لقب (متولي) كان يضاف إلي ألقاب الوظائف المملوكية المختلفة .

وقد أعتاد من يمرون من تحته أن يتلون الفاتحة علي روحه ، كما أن رجال الصوفية أصبحوا يسكنونه ، وأصبح له شهرة خاصة .

وقيل أن هذا الباب كان به قطعة من الحبل متصلة بخطاف ، هي التي شنق بها طومان باي .

ومنذ قيام الدولة المملوكية كان يشنق علي باب زويلة عتاه المجرمين وأعداء الدولة وشنق عليه رسل هولاكو بأمر من السلطان قطز بطل معركة عين جالوت ضد التتار .

يقول التاريخ أن طومان باي لم يترك غير زوجة واحدة تزوجت من بعده رجل مصري يقال له الشيخ إبراهيم (رغم إنها ابنة أمير كبير من أمراء المماليك وزوجة سلطان سابق ، إلا أنهم كانوا قريبين جدا من الشعب المصري واعتبروا أنفسهم من المصريين الذي كان يقول عنه طومان باي (قومي) في حديثه مع سليم.

بقيت الى أن ماتت علي زمة الشيخ إبراهيم ، ولم يخلف طومان باي أولاداً ذكوراً بل ترك ابنة واحدة عمرها حوالي عشر سنين توفيت حزناً علي أبيها في نفس العام الذي قتل به .

وعن ثروته فلم يترك إلا سيفه. (ومن المفترض /نظريا /أنه مازال موجودا في المتحف الإسلامي بالقاهرة.)

\*\*\*\*

## إعدام الأمير شريك الأعور(هرقل المقاومة الشعبية)

في نفس الوقت أحضر العثمانيون الأمير شريك الزميل المخلص لطومان باي وصديقه في النضال ضد العثمانيين ، وكان قد قبض عليه بالخديعة بعد أن أفلت من العثمانيين ، عندما حاصروهم في تروجة .  
وذهبت شريك إلي أحد أصدقائه العرب ويسمى (أحمد بن بقر)، شيخ عرب الشرقية ودخل لينام عنده وكان مرهقا بعد هروب أستمّر عدة أيام لم يذق فيها طعم النوم ، فدخل عليه ابن بقر وأعوانه وضربه بالنبوت في رأسه ، ووقع عليه باقي الأعوان وكتفوه .  
وذهب الغزالي إل ابن بقر لإحضار شريك مقيدا ، وأركبوه علي بغل وقيدوه من تحت بطنه كما فعلوا مع طومان باي .

## الأمير "شريك". هرقل . في مواجهة سليم الدميم

الأمير شريك ، كان طومان باي قد أخرجه من سجن القلعة الذي احتجزه فيه السلطان الغوري ، وشارك معه حروبه ضد العثمانيين ، وأصبح من أقرب المقربين إلي طومان باي وكاتماً لأسراره حتي أنه كان يعتزم أن يعينه سلطانا من بعده ووليا للعهد.

الأمير شريك كان "هرقلي" القوة. يقال أنه كان يمكنه أن يرفع الفحل بقرنية ويلوي قرنه ويقبله علي جنبه.

يقول المؤرخ ابن زنبيل أن شريك عندما وقف أمام سليم أخذ السلطان يتأمل فوجده من أكمل الرجال، وهيبته ظاهرة وشجاعته واضحة، ذو سكينه ووقار وهيبة وضخامة وحِشمة ، فقال له سليم (لم تقاتلني؟). فأجاب شريك: أنا قاتلت عن مالي وعرضي وأولادي وكتاب الله (نلاحظ أنه اعتبر أن سليم غير مسلم).

فأمر سليم بضرب عنقه وجاءت عياله وغلّامه ، فاستأذنوا في أخذه فأذن لهم سليم ، فأخذوه وغسلوه وصلوا عليه ، ودفنوه في مسجد المدرسة البيبرسية فكان قتلة في نفس اليوم الذي قتل فيه طومان باي.

## مصر من سارق إلى خائن!!.. من سليم إلى خاين بيك

## أعطيك هذه المملكة إقطاعا لك إلي أن تموت

بعد قتل طومان باي مكث سليم الأول في مصر ثمانية أشهر وتأمل معالمها الشهيرة وزار الأهرام والحمامات وأعجب بها وزار مقياس النيل الذي بناه الفاطميون، وأقام فيه بعض الوقت وتعرض هناك لمحاولة اغتيال جريئة قام بها أنصار سيدي المتولي. وصلي في جامع الأزهر وحضر الإحتفال السنوي لفتح الخليج ، وذهب إلي الإسكندرية وأمضي فيها ثلاث أيام وقال أنها أقليم لا نظير له وسبب زيارته

للإسكندرية هو أن الأسطول العثماني وصل إليها ، فقد كان مقررا أن يشترك في فتح مصر بالهجوم علي الشواطئ المصرية لو أن الحرب قد طالت مع المماليك ، وقام سليم بزيارة الأسطول التركي وكان عدده **301 قطعة** ، أطلقت المدافع تحية له ، وأثناء أقامته الطويلة في القاهرة كان يتسلي برؤية خيال الظل الذي ظهر في مصر أيام الفاطميين ، يقول المؤرخون أن **سليم كان ظلوما ومشغولا بالسكر ولا يظهر للجمهور إلا عند تنفيذ أحكام الإعدام** .

كان المؤرخون المصريون يكرهونه وقالوا عنه: كان من طبعة أن لا يثبت علي قول وكلامه ناقض ومنقوض ، وأنه ما كان له أمان إذا أعطاه لأحد.

أما عساكره فكانوا علي شاكلته ، ليس لهم نظام معروف ، وعمل العثمانيون علي إفقار مصر ماليا بكل الوسائل ، بما فيها النهب والسرقه .

وكانوا قد غنموا كل كان يحمله الغوري من مال وتحف ولما دخلوا إلي مصر صادروا أموال كبار رجال الدولة المملوكية ، حتي أموال النساء بما فيهن زوجة طومان باي ، ووالدتها وأخذوا ما لديهن من جواهر وذهب وأواني فضية ونحاس ، وأفقروا المصريين جميعا حينما منعوا تداول العملة المملوكية ، وأصدروا بدلا عنها عملة أخف وزنا لا يدخل فيها الذهب ولا الفضة إلا قليلا.

كما أباحوا تزيف العملة (الزَغَل) فكانت جنود الإنكشارية يدخلون الأسواق ويدفعون بفضة مغشوشة ومن رفض قبولها تنهب تجارته أو يشنق .

ويعتقد أن السلطان سليم جمع من مصر كل ما استطاع من ذهب وفضه وعادا إلي القسطنطينية ومعه ألف جمل محمل ذهباً وفضه. وألغى العثمانيون دور سك العملة في مصر والشام. وأخذ سليم معه خبير سك العملة في القاهرة ، وحمل معه كل شيء له قيمة في مصر وعاد به إلي تركيا عن طريق البر علي آلاف الجمال ، وأعداد لا تحصى من المراكب ، وكانت أكثر المسروقات مأخوذة من قلعة الجبل، مقر الحكم في مصر ، وكانت تحتوي علي تحف مختزنة علي مدي ثلاثمائة سنة في دور واسعة "خانات".

وكانت القلعة تحتوي ممتلكات السلطان وخواصه وأمرائه. هذا ماعدا ما يوجد في القلعة من تحف خيالية تتم عن ثراء غير طبيعي وخزائن للمال والكتب ومخازن للغلال وإسطبلات الخيول، ومناخات الجمال، ولم يترك سليم في القلعة شيء الا وأخذة حتي الرخام والأعمدة لاسيما التي في الإيوان وقاعة الاستقبال وأخذ سليم معه إلي تركيا كل ما أخذه من بيوت الأمراء والأعيان جميعاً، بل ونقل أعمدة عظيمه من الصعيد (آثار مصرية قديمة ) وأبواباً مسبوكة من حديد. وسحب سليم من مصر الخبرات والعقول النابهة ، وأخذ معه الصناع الماهرين في المهن وذكر المؤرخ ابن أياس أسماء هؤلاء الذين صادروهم سليم وسحبهم إلي تركيا وخصص فصلا من كتابة بأسماء من توجه إلي القسطنطينية من جميع نواحي مصر كالمهندسين ، والبنائين والنجارين والحدادين والسباكين والفعلة حيث أخذ سليم أعدادا كبيرة منهم لا يمكن حصر عددهم وهم من الصناع المهرة الذين كانوا يتواجدن في مصر بكثرة وأخذ جماعة من التجار لاسيما تجار خان الخليلي بما فيهم التجار المغاربة ، ونقل سليم مقر الخلافة من مصر الي اسطنبول ، وذلك علي مراحل وذكر المؤرخ المصري ابن أياس أن الخليفة المتوكل العباسي كان صاحب الحل والعقد في أول أيام فتح العثمانيين لمصر فكان في مقام سلطان مصر، في نفوذ الكلمة وظهور العظمة ، حتي كانت زوجة طومان باي في بيته وبعد أن استفاد سليم من الخليفة المتوكل

في تثبيت فتحه لمصر "تغير خاطره عليه" وأصدر له أمرا بالرحيل إلي اسطنبول مع بعض أولاد عمه ليقطع جذور أسرته من مصر نهائيا وهناك فرَّق سليم بينهم .

\*\*\*\*

## طريقة تركيا لحكم مصر

عندما غادر سليم مصر أختار له نائبا في حكمها من المماليك الشراكسة وهو خابر بك ، وكتب في خطاب التولية الذي أصدره (في 31 أغسطس 1517) أعطيك هذه المملكة إقطاعا لك إلي أن تموت. ( مصر يهبها سارق إلى خائن!!).

أسس السلطان سليم في مصر حكما مملوكيا تابعا لتركيا وقسم مصر الي أربعة وعشرين مديرية علي رأس كل مديرية أمير مملوكي مهمته فيها جمع المال، أي أنه وضع المماليك في مواجهة الشعب المصري لاستعبادهم وسلب أموال المصريين لمصلحة السلطان التركي .

توفي سليم يوم الخميس 22 سبتمبر 1520 م وأظهر خاير بك والعثمانية الحزن ولكن الشراكسة أظهروا الفرح والسرور بسبب أنه قتل الكثير منهم ، وأظهر المصريون الشماتة ، لاسيما أن موته كان بطيئا فقد أصيب بجمرة كانت سبب عذابة ثم موته .

ويقول المؤرخ ابن إياس عن ذلك ان الله قد أخذه بالعقاب علي ما كان يفعله في الناس وتخريب ديارهم.

\*\*\*\*

## وفاة خاين بيك

استمر خاير بك في حكم مصر بالحديد والنار خمس سنين فكرهه المصريون كرها شديداً وتمنوا موته، إلى أن توفي بنفس المرض الذي مات به سليم وهو الجمرة.

لكن جلاوزة البيزنطية العثمانية (حفيدة الهرقلية الأموية) بذلوا مجهودهم التاريخي والشرعي لحماية الانحراف وتسويغه.

فصنعوا صك غفران لأجل خاين بك. لإدخاله الجنة أو لتبييض صحائفه الدامية.. في تزوير تاريخي يجعل خائن مصر الأول. واحدا من الأولياء الصالحين. خاين بك تاب وأناب وأصبح من ملائكة الرحمة أثناء مرضه وقبل أن يموت. وثيقة بثوها في ثنايا رواياتهم التاريخية تجعل من الممكن الدفع بالشرع عن خائن مثل خاير بيك (كان سيئا في جاهليته، التي هي حياته كلها). وأن الله قد تاب عليه وبالتالي هو الآن من أهل الجنة ومن يعترض فقد كفر ويلزم قتله لا محالة.

فهو مجرد خائن اجتهد فأخطأ فلة أجر ومن أدرانا فربما أنه أصاب وفاز باجرين. وكان حسن النية بدليل أنه في الدنيا امتلك مصر إقطاعا مدى الحياة، منحه من سليم العثماني الذي نهب مصر وجعلها خرابا وقتل الآلاف من شعبها.

وهذا هو صك غفران للخائن خاير بيك على هيئة سرد تاريخي:

يقول مؤرخ مصري(ويقال أنه لما تزايد عليه المرض آخر أيامه تحرك ضميره فعمد علي عتق جواربه وعبيده ومماليكه وفرق المال علي الفقراء والمساكين وأخرج المحبوسين من الرجال والنساء وكان عددهم كبيراً. وفعل أشياء كثيرة من أنواع البر والصدقات بحيث ذهل الناس من تصرفه ولم يروا في أيامه أحسن من هذه الأيام ).

\*\*\*\*

## فضائل مصر .. و فضائل سيدي المتولي

جاء في كتاب بدائع الزهور في وقائع الزهور(المؤلف ابن إياس) أن المئات من الأنبياء والصالحين قد مروا علي مصر أو أقاموا فيها أو ولدوا فيها أو عبروا بها .

كما بها الكثير من الأماكن التي تميزت أما باستجابة الدعاء أو بالبركة التي حلت حولها وروي في بعض الأخبار أن يوسف عليه السلام لما دخل في مصر وأقام بها قال (اللهم إني غريب فحببها إليّ وإلى كل غريب) ، فمضت دعوة يوسف فليس يدخل غريب الا وأحب المقام بها. وبها الكثير من الأماكن المباركة التي يستجاب بها الدعاء وهي معروفة ومذكورة في الكتب التي تتحدث عن فضائل مصر ويلاحظ أن تحركات سيدي المتولي قد أرتبطت بالعديد من تلك الأماكن، ومعظم الأماكن التي ذكرت في تحركاته مرتبطة بمزايا دينية معينة.

علي سبيل المثال : منطقة الريدانية التي جرت فيها المعركة الشهيرة بين المصريين بقيادة (سيدي المتولي) والجيش التركي بقيادة سليم الأول، تلك المنطقة مشهورة بوجود بئرٍ اغتسل به السيد المسيح فنبتت أشجار البيلسان وهي لا تنبت الا في ذلك من مصر ولا يفلح في أي مكان آخر. ويعتبر هذا المكان من المزارات المباركة لدي الشعب المصريين من مسلمين ومسيحيين.

أما جبل المقطم الذي وضع عليه سيدي المتولي مدفعيته الثقيلة في معركة الريدانية فيقال أن سفينة نبي الله نوح كانت قد مرت به فإشتهر المكان بإجابة الدعاء.

أما مدينة الجيزة فقد مر عليها سيدي المتولي في نهاية رحلته ووقف عند الأهرامات الا أنها أيضا مشهورة بأماكن يستجاب فيها الدعاء مثل سجن نبي الله يوسف عليه السلام.

## مدينة بهنسا:

وهي مدينة من الناحية الروحية لها صفات خاصة جدا، فقد أقام بها السيد المسيح مع الحواريين لمدة سبع سنوات، وقد جاء في سيرة سيدي المتولي، كيف أنه خاض أهم معاركه ضد العثمانيين علي شاطئ بهنسا، وحطمهم تماما داخل مراكبهم في النيل قبل أن ينزلوا إلي البر، وكان عددهم كبيراً (حوالي ألفي مسلح بالبنادق)، وكان السلطان قد خسر جميع مدافعه وبنادقة في معارك حواري القاهرة ومن قبلها معركة الريدانية وجبل المقطم.

\*\*\*\*

إنتهى .



نشر في تاريخ 2024/05/22

موقع مافا السياسي

WWW.MAFA.WORLD